رسائل بحيرة العسل

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ ـ ٢٠١٩م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٨/٨٠٣٠

بطاقة فهرسة

فارس، مارينا

رسائل بحيرة العسل: رواية/ مارينا فارس، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٨

١٤٤ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٤-١٤٣-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر ـ القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

عمرو الحو

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق الداخلي

أحمد البسيوني

رسائل بحيرة العسل

تأليف

مارينا فارس

دار غراب للنشر والتوزيع

إهداء

إلى مُكعباتِ السُّكَّر..

التي تجعل الحياة أجمل، وتستحقُّ أن تُعاش.

-١-

«هناكَ أشخاصٌ عندما تلتقي بهم ...تشعرُ كأنك التقيتَ نفسَك»

غادة السمان

أحيانًا من اللقاء الأول بشخص ما تشعر أنه سيحتلُّ بطولة إحدى قصصك،وأنه سيترك نبتة صغيرة في إحدى زوايا قلبك، وسيضيف رفًّا إلى غرفة ذكرياتك، رفًّا قد تحطُّ عليه أتربة تتابُع الأيام، وجريان الزمن، لكن لا ينال منه النسيان أبدًا مهما يَصر،تشعر أن ذلك الشخص سينقص من وحدتك شبرًا، ويُضيف إلى غُربتك شوارع، أن وجوده لن يشغل حيزًا من الوجود العادي. فحين تجدُ شخصًا تشعر أنك تنتمي إليه، يزيد شعورُك بالغربة عمَّن سواه، وتكونُ غارقًا في الوحدة حتى تراه، وحين تلقاهُ تشعرُ كأنك مُغترِبٌ، قد وَجَدَ مصادفةً صديق طفولته بين تلالِ غُربته.

حُضورُه يُثيرُك، يُشتت روتين اليوم العادي، فتشعرُ وكأنك تستمع إلى نغمات أغنيةٍ جديدةٍ تسرَّبت إليك من المذياع، كأنك جالسٌ في صالة سينما تُحملق في الشاشة الكبيرة التي بدأ عليها العرضُ لتوِّه، تحاول أن تتوقع كيف

ستبدأ القصة، ومتى سيهدأ شغفُك بذلك اللقاء، وإلى أي مدى سيظلُّ انجذابُك إليه مُشتعلًا.

وهذا ما صار في بداية ذلك اليوم، وبالروعة البدايات التي تضيف إلى العمر عُمرًا، تلك اللحظة التي بدأت عُمرًا جديدًا، بدأت تقويمًا جديدًا في مملكة القمر. فماذا تفعل حين تجد عينين تقرآنِ أفكارك السرية، تُفتِّشانِ داخلك حتى قبل أن تعرفان هجاء اسمك أو سبب وجودك هنا؟!عندها تبدأ الذاكرة في الإنبات، تمامًا كصبَّارٍ ينمو ببطءٍوحكمةٍ حتى يزرع أشواكه في أرجاء الحكاية.

للأماكن والأشياء روح وذاكرة تحفظ الحكايات، حتى وإن نسيناها نَجِدُها تنبعثُ بكل الحياة بمجرد أن نخطو فوق مسرح الذكريات، نجدُها في حُجرات القلبِ قد نفضت عنها أتربةَ تتابُعِ الأيام، ووقفت ككيانٍ مُلوَّنٍ لامعٍ وكأنه جديد وطازج وحافل بالحياة. للأماكن ذاكرةٌ، وللعطور خبايا لا تنتهي، ثمة قصةٌ تختفي كلها في زخَّة عطرٍ، أو سوارٌ يلتفُّ حول معصمٍ تمامًا كما تمسك الذكريات بشرايين القلب، أو علَّه مجرد باب قديم متهالكٍ تقف خلفه مئات الحكايات الصغيرة.

يقول محمود درويش: «الحنين هو استرجاع الفصل الأجمل من الحكاية»، وهأنا أسترجعُ كل الحكاية بكل فصولها، فلا أسمعُ سوى صهيل الحنين،

وأتركه يُعربِدُ داخلي، ويُوجعني حين يتخبَّطُ في جنبات رُوحي، ولا شيء يُوقِفُه في جُموحه، وهو لا يعرف للتعب معنًى،وأخيرًا لا أجدُ فرصة للنجاة إلا على مَتْنِ الأوراق.

وهأنا أبدأ خِطابي الأول. نعم.. أنا أكتبُ رسائلي إليك، وأنا أعلم أنه لا ظرف يسعُها، وليس لي طابعُ بريدٍ واحدٍ لأُرسلها،لكني تحت طائلة البوح.. أكتبُ. فهناك أشياء لا يُجدي معها الصمتُ نفعًا، فلا تتمكن من إغلاق دولاب ذكرياتك عليها وتركها تصطخب؛ لأنها حتمًا ستُخضِّبُ عينيك ببريقها، وتشتعل بين أصابع يديك باهتزازت البوح، ولاتدع لك الفرصة لتلقيها في رفٍّ بعيد؛ فتغطيها أتربة الانتظار، وجريان العمر، فهي دائمًا تحظى بزخم الفرح. ثمة أشياء لا تنطبق عليها شفتا الصمت فلا تسكت.وثمة أشياء تعلو فوق قامة الدهشة، فمن شدة صراحتها، وتشبثها بمرتفعات الصدق يصير التصريح بها في رداء اللغة إهانة لها. وثمة أشياء شفافة، لاتبدو إلا لتختفي، لا تلمس الواقع إلا وتحترق.

والقلم لا يختلف كثيرًا عن مشرط جراح، فكلاهما يصنع ثقبًا في القلب والروح، كلاهما يستأصل أوجاعك الخبيثة، ويزرع حياة جديدة، وكلاهما يُحرر كريات دمك أو فراشات أفكارك لتركض للعالم الخارجي، وكلاهما يترك جرحًا يلتئم فينبت فوقه الياسمين أوتظل تشتعل حرائقه باشتعالات

البوح. لكن من يستطيع الخروج من نفسه ليراها بحيادية ويلمس جسد الحكاية ببرود مشرط جراح، يقتطع من جسد ذكرياته وكأنها ليست منه؟!

فأنا أعرف أني مقدمة على فعلٍ خطر، فحين أنفردُ أنا بأوراقي السرية وطيفك الملون بالتناقضات، أنزع عني كُلَّ العقل والمنطق، وأرتدي جنوني وقلمي وكفي. فمنذ متى ويجب علينا أن نُرضي عُقولنا كي نصنع فنًّا أو حبًّا؟! وأعرف أن تلك الكلمات التي سأكرس لها لغتي ستصير منبع حرائقي، لكن أنا ليس معي إلا الكلمات، تلك اللعبة الخطيرة السحرية، فكيف لا أهديها لك؟!

-٢-

والحبُّ مثل الموت، وعدٌ لا يُرد ولا يزول

محمود درويش

والآن كم من البدايات تصطدم برأسي بينما أتجول في أروقة الحكاية، أتذكر حين رأيتُك للمرة الأولى، كانت تلك الأيام التي يلملم فيها الصيف أذياله، ويرحل، ويبدأ الشتاء يهدهد الصباح على مهلٍ.كان الطقس رائعًا، وكان قلبي قد نضج كثمرةٍ مُثقلة بالأسرار والأسئلة، وقد هدأت ثورة عقلي مُخلفةً وراءها لوحة فسيفساء بهية الألوان.

كانت الثامنة والنصف صباحًا، يومها أتيتَ متأخرًا عن موعدك، كنتَ متلعثمًا ومتعثرًا في حديثك، عيناك تدوران في المكان باحثتين عن شيء ما لا أعرفه، وتستقران أخيرًا على وجهي لتزرع فيه نظراتٍ تقطُرُ شيئًا ما كالدهشة أو التعجُّب. تُطيل النظر إليَّ فتزداد حيرتُك وتمتلئ عيناك بأسئلة لا تقولها، كيف حدث من البداية أن أُجيد لغة عينيك؟!

آه.. عيناك تلك القصيدة الصامتة، تشتعلان صمتًا وتنطفئان صمتًا، لكنهما تركتا داخلي صدًى لا يصمت أبدًا.كنتَ تنظر إلى كل شيء بغرابة، حينها ظننتُ أنك شخص غريب الأطوار! لم أكن أعلم ما سيأتي، لم أكن أعلم أنني سأُدمنك، وأن غرابة أطوارك تلك ستكون نهجي في الحياة. بعد مرور عدة أسابيع وجدتني أُفكِّرُ بك دون سبب، أتذكر ضحكتك، أتذكر مُزحةً قُلتَها، شيئًا ما قد تحدثتَ عنه. وجدتُ شيئًا غريبًا لم أعرفه من قبل يقتحمُ كل الأرفف، ويعشش في كل الزوايا وفوق كل الصفحات، إلى أن أصبحتُ أدورُ في مدارِكَ، وأبحثُ عن آثارك كعصفورة جائعة. أنتظرُك وأبحثُ عنك دون ملل، لم أكن أعرف أنه ذلك الشيء الخطير جدًّا المسمى «حبًّا» وقد استعمرني بالكامل.

رأيتُ في عينيك حكاياتٍ ونزاعاتٍ، رأيتُ في عينيك ولادةً وهلاكًا يتتابعان ألف مرة. لم أعرف إلى أي مدى ستبحر بي عيناك، ولا إلى أي الشطآن ستسلم قاربي الصغير.لكني اخترتُ الإبحار، رغم صراخ الخرائط واعتراض البوصلة.

دون أن أدري أخذتُ ملامحك تنطبع في ذاكرتي سريعًا كالصلصال، عميقًا كالرسم على الحجر، تحفر حائط ذاكرتي بالنار.. حركاتُ يديك، رفاتُ عينيك، نظراتهما، وحتى انفراج شفتيك عن أسنانك حين تلمع النجوم

وتزهر الكلمات، وكأنك عصا مايسترو حين تلوح تتسرب النغمات العذاب. تتسلل إليَّ، تقتحم مسامي كنار تشتعل في حطام سفينة في وسط المحيط. وحين يلوح وجهك، أعشق الحياة ولحظة ميلادي، وأتمنى أن يقف الزمن كالتلميذ الخائب أمامك.

هل كان من الممكن ألا يَحدُثَ كلُّ هذا يا سيدي؟!

-٣-

«ولم (أقع) في الحبِّ، لقد مشيتُ إليه بخطًى ثابتة مفتوحة العينين حتى أقصى مداهما، إني (واقفة) في الحبِّ لا (واقعة) في الحب».

غادة السمان

كيف حالك؟!

اليوم توقف قلبي دقيقتين تحية لقدومك!

كنت تقف وسط الزملاء تُحدثهم في أمور تخصُّ العمل، سألتَ أحدَهم سؤالًا فأشار إليك تجاهي، حينها نظرتَ إليَّ ثم قطعت خطوات قليلة وتوقفت أمامي، ألقيتَ التحية بابتسامةٍ ساحرةٍ، ونظرتَ في عيني تلك النظرة المخترقة لأسواري كلها، وكأنك ترى أعماقي، ثم بدأتَ تتحدثُ، وتملي عليَّ كلمات لأكتبها، فوجدتَ جسدي يرتعش، كانت روحي ترتعش أيضًا، وكأني على وشك استقبال سرٍّ عظيم لا تجودً به الحياة كثيرًا، دفنتُ عيني في أوراقي الكثيرة، وأنهيتُ عملي، ثم مددتُ يدي لأسلمك ما كتبتُ.

الآن أسألُ نفسي في تعجبٍ: لِمَ أرتعشُ من نبرات صوتِك، وأقفزُ كمؤشر الراديو وأنا أمسك بقلبي ليكتبَ ما تقول؟! لماذا تدور حولي مئات الأقمار كلما جلتَ بخاطري؟! وحين نظرتُ إلى عينيك كي أبحث عن إجابةٍ شعرتُ وكأنهما تشتعلان بعشرات الشموس فيغشى بصري.

كلما رأيتُك أختزنُ ملامح وجهك كنملةٍ نشيطةٍ تعمل قبل أن يُداهمها الشتاء. أمتصُّك، أمتصُّ حركة يديك، اختلاجات وجهك، وأصبح كآلة تصوير سينمائية تعشق وجه بطل الرواية. أجلسُ أمام بابك، أُرهف السمع عسى أن أسمع صوتَك، فيتلوَّن يومي بكل ألوان قوس قزح. أنظر إليك خلسةً علَّني أحظى بنظرةٍ؛ فيغمرني العبير. أن تمرَّ وتُلقي سلامًا يُعيد إليَّ السلام، فأنسى كل شيء، أنسى العذاب والانتظار.

أنا التي لامست أحلامَها النجومُ، كيف يصير أشهي أمنياتي أن ألقاك ذات صباح؟! ترى أيُّ خطب أصابني؟!

-٤-

مساء الخير أيها الهارب.

اليوم عدوتُ إلى حيث اعتدتُ أن أراك تجلس، ولكني لم أجدك، شعرتُ بخيبة أملٍ، ووجدتُ عيني تدوران في المكان بحثًا عنك دون جدوى. وجدتني أرغب في الجلوس في انتظارك علَّك تأتي!

الأغرب أن قلبي مازال متُشبثًا بالمصادفة علَّها تجود بلقاءٍ عابر. وما زلتُ أكتبُ إليك رسائل لا تصلُ كرسائل استغاثة يحملها الموج في زجاجة.

يا ترى هل وضعي خطير؟!

-٥-

تلك المياه الجائلة بين الأشفار والأهداب
كبحيرات تنطقن بالشاطئ وأشجار الحور
العيون! ألا تدهشك العيون؟

مي زيادة

كيف حالك يا سيدي؟! أكتب لعينيك رسالةً جديدة.

العيون تلك الطاقة المفتوحة على الروح.. أيًّا كان شكلها أو لونها.. تلك التي يغار من لونها الزيتون، وتلك التي يلقى عليها البن لونه فلا تكتفي بلون القهوة فقط، بل تكتسب سحرها أيضًا، وتلك التي يستعير منها الليل لونه، وتلك التي يحتلها لون البحر، وتلك التي لا تذكر لها لونًا.. فيأخذُك سحرها قبل أن تتبين لونها.

ثمة عيون ترى فيها السماء.. ترى داخلها حياة تشتعل بالأغنيات، وعيون تقتحم كل أسوارك وتُبددها، حين تنظر إليك فإنها تنظر إلى داخلك.. تقرأ

أفكارك وكأنها مسطورة على جبينك. عيون تنغلق على أسرارها.. تقتحمها بُحيرات عسل لا تهرب منها قطرة، وعيون تنشر أخبار صاحبها على أهدابها، وعيون تكتبُ نهايات الحكايات دون أن تعرف الأبجدية، عيون صماء لا تحمل حكايات، ولا تروي أغنيات، تحمل خلفها صحراء لا عود رطب فيها، وعيون تحمل أمطارًا ورعودًا وشتاء لا نهاية لشجنه.

ثمة عيون حين تنظر إليك تغلفك بحنانها فترى فيها الجنة، وعيون مظلمة.. يملؤها الحقد ويلفُّها الأسى.. فتحتار بأمرها.. تشعر بالشفقة أحيانًا عليها.. وأحيانًا يُغرقُك حِقدُها بالغضب منها. عيون تقول عكس ما يفعل صاحبها.. فتكذب كل أقواله، وتثبت كذبه عليه.. فيأتي حديثها خافتًا وكأنه قادم من حضن بئر بعيدة.. كأنه من زمن آخر، عيون لا يصمت حديثها حتى وإن لم يُصرِّح صاحبها بأخباره، وعيون تبدو كمنارتين وسط بحر هائج، لكنهما لا ترشدان سوى للضلال.

ثمة عيون تضربُ بكل قوانين الطاقة عرض الحائط. فأحيانًا تزرعك في دفء لا نهاية له، وأحيانًا تتركك في منفى من الجليد المشتعل بالحنين.وعيون إذا هربتَ منها تجدها مزروعة على وسادتك، وتطرح في كل أحلامك، وعيون يأكلك الملل من نظراتها الصماء فتشفق على ضياع لغتها وروحها.

لكن لم تكن عيناك كأي عيون مرَّت بذاكرتي. كانت عيناك وطنًا مُعدًّا مُسبقًا للسكنى، كانت مسرحًا لألعاب طفولتي وشبابي.. ماذا أقول عن

عينيك يا سيدي؟! في حضرة عينيك، تتلعثم القافية في فمي، تتعثر الكلمات أثر بعضها البعض أمام قلمي، تنساب الألفاظ مسحورة كأرانب جائعة من بين أصابعي، فتستقي كل الفواصل والكلمات الغجرية من سحرهما حتى تصبح قصيدة لم يحلم بها شاعر من قبل.. لتبقى كل اللغة أسرى أهدابك، وأقف أنا وأقلامي كتلميذ مطيع نكتب ماتمليه عيناك دون نقاش. عيناك لا تسحران! بل إنهما تشعلان صاعقة تخترق جسدي، وتفتت روحي إلى أجزاء صغيرة كل أحلامها أن تظل تواصل الاشتعال بالأهداب للمُنتهى، عيناك لا تسحران بل إنهما تحرقان.. تحرقان جنوني وما تبقى من عقلي، عيناك لا تسحران بل إنهما تقتلان المنطق والعقل، وتلعب الغميضة مع كل قوانين الطبيعة وتربح اللعبة، عيناك لا تسحران بل إنهما يضعانني في قمة ألم مخاضٍ أُولدُ فيه من جديد لأصير ابنةً شرعية لعينيك، والمالكة الوحيدة لكل نظرات الغزل، والعاملة المسؤولة عن جمع ضحكاتك التي تُربكني وتربك الدماء في شراييني حد تقطُّع الأنفاس.

ما زالت بحيرات العسل تستحلفني الغرق.. وها هو رحيقها يُغريني كنحلة عاشقة، فماذا أفعل؟!

هل ستعود تلومني لاحقًا لأني أردت أن أُشبِعُ فضولي من حكايات عينيك؟!

***

-٦-

«لا أُحبُّ الصّراخ بحنجرتي، فصرختُ بأصابعي وأصبحتُ كاتبة»

كوليت الخوري

أكتبُ إليك اليوم لأحكي لك عن جنية الكتابة.

في محاولة فهم ذلك الكيان الذي يرتديني بمجرد أن أفرغ لأوراقي، ويجعل كل القوانين تسقط، وتنقلب الثوابت رأسًا على عقب، وحتى الوقت لا يكون له قيمة، ويتوه عمري فأنسى كم من العمر عشتُ، وفي أي زمن أحيا، فأصير مرةً طفلة تعدو خلف الفواصل، وتتلصَّص على الاستعارات، وترتدي الكنايات واحدة تلو الأخرى كفساتين العيد، أو أصيرُ كهلًا حكيمًا يروي السطور من خبراته، ويُدهِشُ اللغة بتناقضاته، فتقف الصفحات البيضاء مندهشة أمام قلمه، أو امرأة ترسم الألفاظ كما تضع مستحضراتها وترسم الظلال فوق جفونها وعلى شفتيها.

جنيتي تزورني فتجد مكتبي مزدحمًا بالكتب والأوراق، لكني بمجرد أن ألمح طرف ثوبها ألقي بكل الكتب والأوراق غير عابئة.. على أتمِّ استعدادٍ أن أشعل النيران فيهم احتفالًا بحلول جنيتي.. جنية السحر والأغنيات، فتجلس جنيتي على طرف أفكاري تقرأ لي شعرًا، وتجعلني أركض بين الفواصل، وأتسلق القصيدة بيتًا تلو الآخر، وتغني فتُطرب قلبي وكل عظامي، أصنعُ لنا القهوة وأغني، تشاركني فنجاني وأغنيتي، أجلس كي أرتشفَ روايةً ألقت بي بين فصولها، أو تتركني بين دفتي كتاب أكتشف كنوزه، ثم تغادرني بسلام ومذاق السعادة عالق في فمي وأوردتي، فأمسك بقلمي وأكتب عن تلك النزهة القصيرة السحرية، أكتبُ ما لا أجيدُ قوله.. أكتبُ ما لا أجيدُ فهمه، وأتلو ما كتبتُ على مسامع كل شراييني النابضة بالسعادة والجنون.

وترحل وتتركني أجمع نجومًا وياسمينَ قد نثرتها فوق أوراقي، تصنع من هزائمي الصغيرة أقمارًا، تترك لي بعض النغمات في زوايا حجرتي وتخبئ لي ذكريات تحت وسادتي، وتزرع لي ألف نبتة سحر تحت أغطية سريري، تحكي لي عن شمس الغد التي ستُشرق، وتحمل لي معها قصصًا وحكاياتٍ جديدة سأكون أنا بطلتُها، تخبرني عن الأغنيات التي سأسمعُها والقصص التي سأقرؤها، توقظ أحلامي وتضع عباءة الغد على كتفي، وتتركني أتمايل كرياحين هزتها الريح.

أحيانًا تنقطع جنيتي عن زيارتي، وتُلملم سحرها وترحل.. تتركني كمعبد لإله قد كَفَرَ به أهل المدينة.. تتركني كزجاجة عطر فارغة.. فإذا سكتت أغنية جنيتي يسكن ذاكرتي النسيان، وتتوالى الأيام على رأسي كتتابع الخصوم على لاعب مهزوم، وكأن جنيتي برحيلها قد أخذت في أثرها المعاني والألوان من كل شيء.. حتى الأغنيات صارت كبقايا القهوة في الفنجان.. صارت باردة.. رمادية.

حينها ترحل عني لعبتي الخطيرة، تلك اللعبة الساحرة التي ينقلب سحرها عليَّ أحيانًا، فتشيح الأوراق البيضاء بوجهها عني، وتترك الحبر خائفًا في قلمي، فأبقى وحدي أدور في قفصٍ مغلق، وتبقى كل الأفكار جامدة في عقلي، فأصير كمن يمشط الغيوم بفرشاة أسنان. أنا أخشى إفساد تعويذة اللعبة السحرية، في كل مرة أمسك بقلمي، وأخطُّ شيئًا ما، أشعرُ أنها الأخيرة، وأن قلمي لن يمنح لي تلك المتعة مرة أخرى، أشعرُ أن الأوراق البيضاء في أي لحظة سوف تغضب عليَّ، وتطردني من جنتها، وستشيح عني بوجهها العطشان إلى الحبر، فتزداد غربتي.

وأنا أبقى غارقةً في وحدة رمادية اللون والمعاني.. وحدة من زخم الأفكار.. وكبُستانٍ نسيَ الربيع طريقه.. أبقى في انتظار إشعار آخر من جنيتي، فقد ارتدت كلُّ الأشياء الرماديَّ إلا أجنحة فراشة الأمل الهشة.. إلا وعد صغير من جنيتي بزيارة قريبة.

هل جربت مرة أن تقترف فعل الكتابة؟! أظنك فعلت..

أما إذا أردتَ أن أكتب لك عن الملل يا سيدي فذلك يحتاج إلى مساحات كبيرة كي أشكو لك عما يفعله بي.. علَّني أحكي لك عنه في رسالتي القادمة..

طابت ليلتك.

-٧-

سيدي.

اليوم كان مُمطرًا وشديد البرودة، رأيتُك وأنت ترتعش، وتحكُّ يديك إحداهما بأخرى كان يحل الدفء بقلبي أنا، وكنت أرتعش فرحًا لرؤيتك عن قُربٍ، وشعرتُ أن الشمس فوق رأسي.

يا سيدي، بارد هذا الشتاء!

قد حَلَّ العيد فوجد قلبي مغمورًا في ثلوج من حنين، فمتى أراك لأسرق من بين عينيك شمسًا وعيدًا؟!ويمرُّ العيد، ويطرق بابي، ولا أجد شيئًا أقوله له إلا اسمك، ولا أمنية إلا عينيك، ولأنه لا عيد ولا هدية إلا أنت..

أنا أصبحتُ أحوم حولك كفراشةٍ بحاجة لبعض الضياء، تتبعك عينايَ كساعي بريدٍ نشيط يحمل إليك رسائل حُبٍّ يومية، عساني أحظى ببعض الرحيق، أو يتسلل لي لحنٌ عذبٌ من بين شفتيك، عساني أراك.. فيكبر قلبي وتصير عيناي أكثر سحرًا.

***

-٨-

سيدي أكتب إليك لأخبرك قصة اليوم:

إنني رأيتُك اليوم.. بداخلي رأيتُك، أنا أصبحتُ أراك داخلي في أدق المشاعر.. في ذروة الغضب.. في موجة الفرح .. في انكسار هزيمتي أمام أحلامي.. أراكَ في حنين الغرباء للوطن.. أبحثُ عن صورتك في لوحة رسمها السحاب لتوه.. في نقش المطر. أبحثُ عن حروف اسمِك في كتابي المُفضَّل، أراكَ داخل الطائرة المُحلِّقة فوق رأسي المسافرة إلى مكان لا أعرفه.. فهل هذا يعني أن وضعي أصبح خطيرًا؟!

لا أكفُّ عن الركض خلفك في خطوط يدي، والبحث عن عينيك في وجوهِ البشر.. لم أكن أعرفك تمامًا، لكن مراصد النجوم أخبرتني أنك قريب، وأكدت لي أنك تبحثُ عني.. تبحثُ عن عينيَّ في وجوه البشر.. تُخمِّن أحرف اسمي من قصتك.. تجري خلفي في خُطوط يدك. أخبرتني الأطياف المُلوَّنة باقتراب موعد حُلولك.. وهأنا يا سيدي أؤكد لك أني هنا حسب الموعد المُتفَق عليه منذ ملايين الأعوام.. أنتظرُك.

هلَّا أتيتَ؟!

-٩-

«يحدث أحيانًا أن أبكي

مثل الأطفال بلا سببٍ

يحدث أن أسأم من عيني بلا سببٍ

يحدث أن أتعب من كلماتي

يحدث أن أتعب من تعبي

و بلا سبب»

نزار قباني

صباح الخير أيها القريب البعيد.

اليوم أكتبُ لك عن الملل كما وعدتُك. أنا أحيانًا يزورني مللٌ يعصف بسكوني، ملل يُسكت كل أفكاري ويُقيِّدُها.. حينها تصير كل الأشياء باهتة جدًّا، وأرى كل شيء ينتمي للعدم، ما عدا حزنًا قديمًا يهمي على قلبي، حزن

قديم أقدم من قلبي ذاته، وأشعر أني وُلدت به وله.. حينها يزورني البكاء كصديق عائد من سفره البعيد، فلا تعود تطربني أغنية، ولا تبهرني رقصةُ الفراشات، ولا قصة البلبل، أرى كل الألوان سكوتًا، وكُلَّ الحكايات سكونًا.

وأحيانًا تسقط السعادة على روحي كالطيور المهاجرة، فأفتح غرفتي، وأُخرج أشيائي الصغيرة من رفوفها، وتأتي بعض النغمات الحائرة كجنيات سحرية لتمسكني بأشرطة حريرية ملونة تنزعني من اليأس.. تبحث في قلبي عن بدايات الحكايات.. تزيل أتربة الملل عن كل أوراقي، وتُخرج الأشعار القديمة من دفاتري.. فأُعيد اللُّعبة من أوَّلِها، وأدورُ في نفس الدائرة. وأعود لأمسك بقلمي لأكتب رسالة جديدة تفوح منها رائحة الحنين.. وأُضيف بعض السطور لقصتي.. وأُغني لقمر لم يَحِن موعد اكتمالِه.

ثمة شيء يجعل كل الأشياء تنتمي للعدم إلا شجنًا قديمًا وُلد قبلي بدهور، لكني لا أعلم سبب هبوطه في مرآة روحي.. كأنني وُلدتُ به أو وُلدتُ له.. لا أُجيدُ سواه.. ذلك الشجن الذي ينزعني من كل وجودي.. ينسيني ما أحبُّ وما أكرهُ.. يجعل كل شيء مُشوَّش حتى وجوه الأصدقاء، ويصبح حينها الحديث عن أمومة شجرة التوت، ولهو العصافير أشياء غير مفهومة.

أنا قد أحببتُ موجات شعري، ولعثمتي في حرف الراء، وغفرتُ لسنَّتي الأمامية تمرُّدَها، لكن ماذا أفعلُ حين تصطخب الأفكار في رأسي، وتدفعني للجنون، ماذا أفعل في عقلي الذي لا يكفُّ عن الأسئلة؟! حين يدلني قلبي على الشقاء، ويجعلُني أركضُ وراء وهمٍ ثم يتركني أُصارِعُ هواجسي وظنوني.

سيدي، أنا إنسانٌ مُجهَد.. كُلُّ يوم يقوم إعصارٌ من الأفكار في رأسي حين أسألُ نفسي: من أكون؟! ولِمَ أتيت لزيارة هذا الكوكب؟! ولماذا لبستْ روحي جسدًا؟! كم عمري أنا؟! كم عمر روحي؟! أشعر أن روحي عاشت ألف عام.. وكأنها جابت العالم كله.أم أنني ما زلتُ أقِفُ على أطراف أصابعي لأتلصص على الحياة من نافذة صغيرة.. كطفلٍ يُشاهد فيلمًا لأول مرة، ويحلم بكل قلبِه أن يصير أحد أبطاله!

وجميع أسئلتي تبقى علاماتُ استفهامها مُتحديةً، مجردةً من إجابات..

ألديك تفسيرٌ لشعور الغربة الذي يقتحم كياني؟!

-١٠-

«أشباح الليل تتبخر مع الفجر، وحُمى النهار تبرد مع نسيم الليل»

الطيب صالح

اليوم أفقتُ من غفوتي وأنا لديَّ شهيةٌ مفتوحة للحديث، فأسلمتُ رغبتي للحروف لأكتب لك خطابًا جديدًا.

نزعتْ عني الظنونُ غطاء النوم، وجذبتني من أطراف أصابعي. نهضتُ سريعًا أبحثُ عن قلم رصاص، وجلست أغازل أفكاري المُشتتة كنجوم ليلةٍ صيفية، مثل حسناء بعيدة المنال والإرضاء. لم أجد سوى قلم حبر جافٍّ، وأنا لطالما تجنبتُ الحديث مع تلك الأقلام، فأخطاؤها لا تُمحى. دائمًا تتجاهل قوانين النقاش، وقراراتها غير قابلةٍ للتعديل بدون أن تترك آثارًا كالزمن. وأنا كنت أخاف الأخطاء، وأكره العلامات الناقصة في دفاتري. ذلك حدث قبل أن أُدمنَ المجهول، وأحترفَ انتظارَه.

كنتُ أُطيع المعقول.. وكنتُ الطالب الأكثر تفوقًا في مدرسة المعقول.. أخذتُ قاربي الصغير، وألقيتُ به في بحرٍ واسعٍ لا موانئ لغضبِه. أحرقت كل أطواق النجاة، وسكبت حبر الليل على الخرائط، وعطلت بوصلة الزمن.. قصصتُ شعري الطويل، وصنعتُ منه شراعًا لقاربي.. أبحرتُ كي أبحثُ عن نجمة أُعلِّقها على جبين الكوكب.. أبحث عن ذاتي.. عن تناقضات نفسي، وصراعات عقلي التي لا تهدأ.. أبحثُ عن المنطق وسط جُنوني وارتباكي الكبير.

قررتُ أخيرًا بعد دوامة أفكار أن أخلع حذائي؛ لأركض في شوارع روحي؛ لأخطفَ كل أزهارها كطفلة تلهو في حديقة الجيران المُحرَّمة.فقد اخترتُ أن أنضو ربطة عنق المعقول لأحظى بلحن منفرد خارج السرب، هجرتُ مقعدي في مدرسة كل شيء معتاد. فقد أيقنتُ أنه قد حان الوقت لارتكاب بعض الحماقات الصغيرة مثل أن أنزع عني المنطق كي أركض في شوارع روحي وأقطف من أزهارها كطفلةٍ عارية القدمين تلهو في حديقة الجيران المحرمة، عندها صار لزامًا عليَّ أن أُزيلَ ما يعلق بقدمي من أوحال التخاذُل. صرتُ أعشقُ نصف القمر الغائب، وأراسله مع عصافير الأشجار المشاغبة التي لا بيوت لها.

أدركتُ أنه قد حان الوقت لارتكاب بعض الحماقات الصغيرة. كأن أظل أغنية أتلصص على لحنها من مذياع بعيد، أو أبحث عن الهدف الذي جعل روحي ترتدي جسدي، أن أنشر أسئلتي كقوارب ورقية دون أن أُحاكم بتهمة التفكير، دون أن تحاصرني العيون بنظراتٍ مذعورة، ماذا أفعلُ حين أشعرُ أن جسدي لم يعد يكفي لروحي، وأن خيالي لم يعد يَسَعْهُ وجودي، وقد أصبح صوتي لُغةً لا يتحدثها سواي، فقد أعلنتُ حروفي تمردها على اللُّغة، وانتهى الأمر، فأنا بحار صغير يفضل الضلال في يَمِّ الاحتمالات على الوصول إلى شاطئ لا ترفع عليه رايات اليقين، أطارد ألوان قوس قزح، تلك الهاربة من الشمس لحافة نافذتي، وأودُّ لو ألصقها بورقةٍ فتصير قصيدةً لم يحلم بها شاعر. أو حين أشعرُ أنني قد صرتُ تمثالًا خزفيًّا تجمدت ساعاته دون حراكٍ، لاتُبهرُني رقصةُ الفراشة وقد صارت كل الأغنيات باهتة، وكُلُّ الحكايات مكررة، ولاجدوى للحديث ولاللصمت. ففي تلك الحالة كل شيء قابلٌ للملل حتى استدارة فنجان قهوتي.

وأنا كموجة عاصفةٍ هوجاء تفور بزبد الغضب ثم تتلاشى أخيرًا، ولا يبقى منها شيء، كطفلةٍ في الخمسين تحمل عبء أسئلتها، وتُسابق ظِلَّ طائرتها الورقية، يأكلني الملل من كل شيء حتى من ذلك الوجه الذي يُطالعني كل يوم في المرآة، ثم تُبهرني شجرة فل، فأتقافَزُ حولها مندهشةً، وأرفع صوت

غنائي في وجه الملل، كما تفتحُ مظلَّتك ذات صباح ممطر. وبعدها أتفرغ تمامًا للغد، فأذهب في زيارة خاطفة إلى النجوم كي أبتاع خيوطًا تكفي لرتق الأمل. صرتُ أعرف جيدًا أن كل البدايات ليست رائعةً، لكنها دائمًا تُدهشني، وتُثير حواسَّ فُضولي للاكتشاف. وليست كُلُّ النهايات سعيدةً ومُرْضيةً، لكنها دائمًا تُعلمني شيئًا ما، وتدفعُني للتأمُّل في الموقف كُلِّه. وأنا رغم يقيني أن للورود أشواكًا فإنني لا أندمُ على وردةٍ قد زُرعت على أطراف قلبي. وكساحرٍ بطلت تعويذتُه أدورُ أبحثُ عن عهدٍ جديد. عن شوارع لا أسكنُها بيوتٍ لا تعرفني أبوابُها.

-١١-

«كلُّ شيءٍ يفِرُّ،
فلا الماءُ تُمسِكُه اليدُ
والحُلْمُ لا يتبقَّى على شُرفاتِ العُيونْ.»

أمل دنقل

اليوم أكتبُ إليك لأحكي لك خيبة صغيرة!

وأخيرًا يا سيدي تصمتُ كُلُّ الأصواتِ، وتهجرُ الحروفُ كلماتِها، حين تمرُّ من أمامي ثم ترحلُ فجأةً.وكأن الكونَ كُلَّه قد حبس أنفاسه معي. حين تُقرِّرُ أن تصطحب كل ألوان يومي وترحل. لا أملكُ سوى أن أُوجِّهَ كل حواسي نحوك، وأتركُ عينيَّ تُتابعانك إلى أن تختفي ويبتلعك الزحامُ البعيد، لكنه لا يأخذك. وجوهٌ كثيرةٌ، وعشراتُ العيون، ولا أحد له عيناك ولا نظراتك. ترحلُ أخيرًا، وتترك كل الأماكن فارغةً، وكل الأصوات صامتة، وتتحول كل الوجوه إلى دوائر مفرغة دون ملامح. أظلُّ أُتابِعك إلى

أن تختفي.. ترحل.. يصبح كل الحضور غيابًا، وأُصبح أنا شبحًا له وجود باهت أقرب للعدم. فأُخرِجُ أنا قُصاصة ورقٍ لأكتب كلماتٍ كتلك أضيفها إلى قائمة خيباتي.

-١٢-

سيدي.. تحية طيبة وبعد،

كُلّ يومٍ تسأل أزهار حديقتي عنك.. ألقيتُ عليها قصتك فتفتحت براعمها قبل موعدها. وعادت نبتة الفل للحياة. تقول أزهاري: «عيناك تشبهان عينيه». أتراها تقول الحقيقة أم أن حديثها مجرد هذيان أزهار قصيرة العمر؟! لكني دومًا يا سيدي أُصدِّق حدس الأزهار وأومن بحكايات الأشجار.. الأشجار أصدقاء رائعون. فالأشجار لا تختفي، ولا تهاجر، لا تنشغل في ذاتها، فقط تُعطي. تخيل أن تمضي الفصول في الاستعداد لصُنع شيء ما ثم ببساطة تتركه يسقط أرضًا.. تمنحه لعابرين لا تعرف ملامح وجوههم. ولكُلِّ شجرةٍ طريقتها في العطاء، فجميعها كائناتٌ وارفة العطاء على اختلاف نوعه، هناك أشجار تمنحك ثمار شهية للحب، وأخرى تضحك في أزهارها، وأخرى تمنحُك ظِلَّها راضيةً. والأشجار لا تطلب سوى مساحةٍ من الحرية لتصنع أوراق خضراء تزين بها الفراغ.. تطلب القليل من الماء، وقليلًا من الحب والاهتمام.. تسأل الشمس المشتعلة أن تطلَّ لتربض على

رؤوسها، والرياح كي تُهدهد أغصانها، فتبدو وكأنها ترتجفُ بردًا، والأمطار كي تغسلها، فتبدو جديدةً ولامعة.

أتعرف؟ أنا عادة لا أجيد الامتزاج في مجتمعٍ جديدٍ بسهولةٍ مهما يكن هذا المجتمع صغيرًا وبسيطًا. أظلُّ فترةً أقف على مسافاتٍ متساويةٍ من الجميع، أظلُّ كنقطة زيتٍ على وجه ماء، لا تجيد الامتزاج. أجدُ معوقات عديدة في التعامل مع البشر، أو بمعنى أصح أجدُ معوقاتٍ في تقديم نفسي للناس كما أنا. أُفضِّلُ الاستماع، ولا أُجيدُ الحديث عن مكوناتي الصغيرة؛ لذا غالبًا أدمنتُ الكتابة تلك اللعبة السحرية.. فالحديث للأوراق أسهل، والتعامل مع السطور أبسط.. لذا معظم الأحيان أتركُ انطباعاتٍ لا تُشبهني تمامًا عند الناس في اللقاءات الأولى، يظنون أني مغرورة، منطوية وغامضة.. لكن في علاقتي بالأشجار الأمر مختلف تمامًا. ينشأ بيننا غرام من النظرة الأولى، وبعدها تتولَّى الأيام مهمة نسيج الذكريات وحياكتها فوق جسد الزمن. إذا كان هناك أشخاص تتقاطع معهم طرقنا، يعصفون بالوجدان، وينزرعون في العمر كسيفٍ، ورغم رحيلهم يبقى حضورهم طاغيًا، وذكراهم تواصل حياتها في جوانب الروح، فالحالة نفسها تنطبق على بعض الأشجار.

في الخطاب التالي سأحكي لك عن بعض قصص الأشجار أصدقائي..

***

-١٣-

اليوم أكتبُ إليك لأخبرك قصة «جميلة» شجرة الفيكس الصغيرة!

أسميتُها جميلة.. رؤيتُها عزفت لقلبي نشيد فرح رائع اللحن..

شارعٌ طويل، مُزدحم دائمًا، ممتدٌّ على طوله شجيرات صغيرة تصارع التلوث.هناك أشجار شائعة الوجود، تلك المتعارف عليها في شوارع القاهرة، بوانسيانا، فيكس وصفصاف.دون سبب مُقنع، علاقتي ليست على ما يُرام بأشجار الفيكس، فمنذ متى وتطلب المحبة سببًا مُقنعًا قبل أن تنزرع في القلب، وتورق في كل الشرايين؟! علَّ بها بعض الخصال التي تحول دون صداقتنا، فالفيكس بالنسبة لي شجر ممل يوجد بكثرة في كل مكان، لا يسمح للخريف بزيارته فتظلُّ أوراقه محتفظة بلونها الأخضر القاتم طوال العام، قابلة للتقليم بأي شكل، ترضى بإعادة تشكيلها فتفقد شكلها الطبيعي الفوضوي، وتُقيد بأشكال صارمة، مستطيل أو دائرة،أشكال بعيدة كل البعد عن العفوية، فالطبيعة لا تعترف بالخطوط المستقيمة، الله المبدع الأكبر خلق في جمال الطبيعة مئات التناقضات والألوان التي لا يُشبه أحدها الآخر، فمن

العبث أن نُقلِّم نحن الأشجار لتكون نسخًا مُكررة ومملة، وأحيانًا أشعرُ أنه من كثرة انتشار أشجار الفيكس في شوارع بلادنا قد تطبعت ببؤس سكانها.

رغم كل الأشياء السابق ذكرها فإنني لم أمتلك إلا الابتسام ملء شفتي حين رأيتُها للمرة الأولى خلال مروري بالشارع المألوف، كانت صغيرةً، وهشةً، وجميلةً حقًّا كطفل يتطلع خارج مَهدِه، ويفرك عينيه بيديه مُستطلعًا ما حوله، شجرة فيكس قد زُرعت لتوها، رأيتُ أسفلها بقايا الأسفلت الذي تمت إزالته ليحل محله جذور شجرة الفيكس الصغيرة، رأيتُ ساقها وهو خارج من حضن الأرض، وحوله بقايا العراك الذي نتج عنه حُفرةٍ صغيرة لتستقرَّ فيها جذورها في أمانٍ.كانت الفوضى أسفلها تبدو كمشهد ولادة، أحسستُ أن الطبيعة دائمًا تنتصر،وأن شجرة الفيكس الصغيرة علامة على أنه لا شيء يبقى على حاله، وأن الجمال موجود دائمًا حتى في الأشياء التي لا تروق لنا تمامًا.

أسميتُها جميلةً، وكلما مررتُ بها أتذكر خلافي القديم مع أشجار الفيكس، وأُلقي عليها سلام الأصدقاء، وأُداعبُ أوراقها الجديدة الطفولية بابتسامة ودود.

صارت جميلة، هي أحدث أصدقائي الرائعين.

-١٤-

طاب مساؤك يا سيدي.

أكتبُ لك من ليلٍ لا يُنيره سوى حديث طيفك، ومرورك بذاكرتي كشهابٍ لامعٍ وبهي.

احتلَّ القمرُ حيزًا من ظلمة سماء تلك الليلة الصيفية، وأنا كالعادة يحتلُّ أطراف أصابعي فنجان قهوة، أتمهَّلُ في ارتشافه حتى لا يلهب لساني، أتركه يبرد، وأشربه فيلهب حواسي كلها. أخيرًا لملم أغسطس ذيوله الكثيرة ورحلَ، وسبتمبر الذي فشل في إعلان شخصيته فطغى أغسطس عليه بدأ يستأذنُ في الرحيل، وبدأتُ أتنفس الصعداء.. ففي أغسطس تُعلق كل أسباب السعادة الصغيرة. يصير حتى شراء حصتي الأسبوعية من البن مغامرة خطيرة. أسير في الشارع المُفضي إلى محل البن وأنا أتقافز بين مساحات الظلال المتاحة، وكـأنني في لعبة «ماريو» أهربُ من ضربات التنين النارية، وشعري الذي صار أشبه بذيل فأرٍ مذعور ألفه بحزمٍ، ثم أرفعُه أعلى رأسي حتى يبتعد أكبر مسافة عن رقبتي وأذنيَّ عسى تُلامسني نسمة أفلتت من يد أغسطس، الآن

أطلق سراحه ليتهدل على كتفي وظهري وأستمتع بالنسائم حين تتغلغل بين خصلاته، فيلامس وجهي ويُخبرني بحكايات صغيرة همسًا.

أفردُ ذراعيَّ على اتساعِهما، وكأنني أريد أن أُخبِّئَ الكون بين أضلعي، وأرفرفُ ضاربة الهواء، لكنه لا يُحملني، ولا أرتفعُ، ولا تبرحُ قدماي الأرض، وعندها يستأذن قلبي للانضمام للسرب، وقبل أن أمنحه الموافقة يكون قد جمع خيباتي الصغيرة، وانطلقَ سريعًا يُسابقُ أجنحة الطيور، وينتظم في سربهم.. أشاهدُ الفتيات يرقصن الباليه ويتحركن كالفراشات.

وأنا بحثت عن نجمتين تائهتين في سماء ليلة صيفية، فعاد شغفي خائبًا.. وقت الغروب الصيفي، وبما أننا في نهايته، فهناك نسائم باردة أفلتت من قبضته، وبدأت تتسلل، أتركُ شعري حُرًّا.. أتركُه يصير وترًا للنسائم، تتخلل بين خصلاته فيداعب وجهي بأطرافه، فأشعر أني طفل صغير تتفرغ الطبيعة لتدليله، وأنني سعيدة، وأنني نسيتُ كل تعب اليوم وسخافاته.

-١٥-

سيدي..

لقد تعلمتُ مفهومًا جديدًا للسعادة حين راقبتُك من كثبٍ، تعلمتُ عِشقَ التفاصيل. وتمنيتُ لو أُصبحُ سِربَ طُيورٍ تُهاجِرُ بين الكتفين، لو أُصبحُ عُصفورةً تحيك عُشَّها في جيب قميصك. تمنيتُ لو أُصبحُ كتابًا تُخبئه في حقيبتك، ما أجمل أن أبقى هنا معك وينتظرني الموت في الخارج! ينتظرني الشقاء بعيدًا عن مجلسك كما انتظرتك معه. حين طلبت مني أن أرفع صوت أغنيتي كي تستطيع سماعها، أتعرف أنك – بغير قصد – سمحت لي بتحقيق أهم أحلامي، أن نحتسي معًا الأغنية ذاتها، نفَّذتُ طلبك مُرحِّبةً، وحين بدأت فيروز تصدحُ وجدتُ رأسك يتمايل مع الأنغام، وتُحرِّك أصابعك مع اللحن، وتخبط بهم بانتظام على كتفك، وكأنك قد ذُبتَ كنغمةٍ وسط اللحن، أغرقتني رؤيتُك تغرق في اللحن، وتتمتم كلماته، فتخرج بصوتك أجمل من أجمل لحنٍ. لم أستطع أن أكمل سطرًا واحدًا من كتابي. ولا حتى متابعة الأغنية التي كنا نسمعها.. أخرجتُ ورقةً وقلمًا حاولتُ كتابة شيءٍ ما، لكني

فشلتُ.. عدتُ إلى متابعتك كمولودٍ أعمى يبصر الألوان لأول مرة، كطفلٍ يتعلم معنى الحياة.

اليوم أكتبُ إليك لأخبرك أن صوتك حُلوٌ حين تغني، فيه دفءُ مائة شمس، وحنانُ ألف قمرٍ، وتألُّقُ مليون نجمة.

-١٦-

«تشابَهْت أنت وقهوتي في اللذة والمرارة والإدمان»

محمود درويش

سيدي..

أنا أحرصُ على شراء البن بكمياتٍ قليلة، كمية تكفي حاجة أسبوع، لكي أحصل على بن طازج أولًا بأول ولكي يتسنى لي الذهاب إلى محل السعادة، حيث يبيعون البن. في ذلك الشارع العتيق، أقطع مشوارًا طويلًا كي أحصل على مسحوق السعادة.

أنا بطبعي لا أحبُّ أن يتسلَّط عليَّ أي شيء مهما يكن تافهًا. ويعجبني قول محمود درويش: «أُحبُّ الشيء ثم أنقلبُ عليه لئلًا يستعبدني». لكن تلك الساحرة لا يُجدي معها انقلاب، ولا حتى ثورة. تلك الجميلة السمراء.. تتسرب رائحتُها إلى روحي كضوء القمر حين يسقط على فراء قطةٍ مُدلَّلةٍ. يبدو أن درويش قد أخفقَ مثلي في الانقلاب على القهوة حيث اتخذها رمزًا

للحياة والسلام في مقابل الحرب والقذائف في وصف يوم طويل من أيام حصار بيروت عام ١٩٨٢ فقال: «أريدُ رائحة القهوة. لأتماسَك، لأقف على قدمي. كيف أذيع رائحة القهوة في خلاياي، وقذائف البحر تنقضُّ على واجهة المطبخ المطل على البحر لنشر رائحة البارود ومذاق العدم..أريدُ هُدنةً مدة خمس دقائق من أجل القهوة. لم يعد لي من مطلبٍ شخصي غير إعداد فنجان القهوة، فالقهوة لمن أدمنها مثلي، هي مفتاح النهار، والقهوة، لمن يعرفها مثلي، هي أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك على طبق، لأن حامل الطبق هو حامل الكلام».

تلفُّني الرائحة، وتأخذني حركة المطحنة وصوتها التي تعرف سِرَّ القهوة وحدها، وأسترقُ النظر؛ علَّني ألمحُ الجِنِّيَّةَ التي تتلو أغنياتٍ تُكسب القهوة ذلك السحر.. ولا يُوقظني من أفكاري إلا صوتُ البائع حين يُعطيني ما طلبتُ، آخذُها بعينين شاكرتين. أُمسكُ العبوة التي يفوحُ منها العبير، أُفضِّل ألا أضعها في حقيبتي، أحبُّ أن أُمسكها بيدي وأمضي طوال الطريق أتخيَّلُ حجم البهجة التي ستمنحُني إياها بمجرد أن أصل للمنزل وأفتح العبوة، فأدخلُ إلى عالمٍ من السحر، وأقعُ في حُبِّ الجميلة السمراء.

للقهوة سِحرٌ خاصٌّ تختلف عن أي مشروب آخر. ليس فقط في مذاقها ورائحتها بل أيضًا في طريقة إعدادها.ومقدار سحر القهوة يتوقف على الأشخاص، مع مَن تشرب القهوة.مثلًا فنجان صغير من القهوة مع

الأصدقاء قادرٌ على محو كل عناء اليوم الطويل. قد تشربُها وحدَك فتغرقُ أنت وأفكارك في عالمها. أحبُّ أن أصنعها لصديقتي عاشقة القهوة، وأصبُّها في فنجانها فتداعب بطرف إصبعها وجه قهوتها ثم تُقبِّلُه بطفولة نادرة. وأحكي لصديقتى التي لا تحبُّ القهوة عن سحر النكهة، وأُخبرها كم تخسر من سعادة بدون فنجان من القهوة تشربه على مهلٍ رشفةً رشفةً.

يا سيد الدهشة، كم أتمنَّى لو أصنعُ لك فنجانًا تبدأ به يومك! أذوب ملعقة سكر وملعقتي حُبٍّ في الماء الدافئ، وأُضيف البن الذي يشبه لون عينيك، ذلك البن الذي أكسبه الهال سحرًا كالذي أضفته أنت بمرورك في أيامي، ثم أُقلِّبُ البن في دومات دائرية كالتي أغرق فيها بدونك، كدومات اليأس التي تعصف بسكوني، وتبتلع أحلامي. وأنتظرها لتنضج، وأتلو عليها كل ما كتبت لعينيك، أستحضرُ صوتك ورائحتك كي أُعطِّر بهما الفنجان. وما إن يحينُ الوقت حتى أصبَّها في تؤدةٍ في فنجان أبيض لم يعرف للكذب معنًى، فتصير سببًا للسعادة مثلك. أُقدِّمُها لك كي تُمسكها بيمينك، وترفعها إلى فمك، فتذوب في طعمها، وتأسرُك رائحتُها، فندخل إلى ذلك العالم السحري المُكوَّن من حبوب صغيرة لها لون عينيك حين تُكلِّلانني بالأفراح، لها سحر عينيك حين تضحكان، لها مرارة عينيك حين تبتعدان عني. لكنني أستمتعُ بها، وأستمتع بمرارتها كما أُحلِّقُ مع سحرها. لأنك أنت قهوتي التي لا أملَّ من انتظارها ورشفها رشفةً رشفةً، لا أشكو مرارتها، فقط أمتصُّ سِحرَها.

-١٧-

«ولكن في اللامبالاة فلسفة، إنها صفة من صفات الأمل!»

محمود درويش

سيدي..

هدوء شتوي نادر، يتساقط المطر، وحينها يختبئ البشر، وتتكفل العصافير بكل المرح. إنها فرصة لا تُعوَّض كي أتفقَّد حال أصدقائي الطيبين. أصدقائي الصامتين، أصحاب الحديث الذي لا ينقطع.. شجرة السرو العالية دائمة الخُضرة والشموخ. تدور حولها العصافير النشيطة دون أن تعبأ بها فروعها.. تلتفُّ حولها أغصانها لتحفظ أسرارها، لكني وجدتُ أن العاصفة الغاضبة قد كسرت أحد فروعها الجانبية الصغيرة، وبقيَ ينظر إلى أسفل لا يُبالي به أحدٌ. عُدتُ لأنظر إلى شجرة التوت التي غسل المطر غصونها العارية بعد عاصفة ترابية غاضبة.. تبدو ناضبة لا حياة فيها، لكني أعلم أنها بعد قليل سيزورُها الربيع، وتنفجرُ الحياة في أغصانِها. أودُّ لو أُراقِبُها صباح مساء؛ لأعلمَ كيف سيبدأ احتفالها. في أي لحظةٍ ستصحو براعمُها لتعلن عودة الحياة.

السماء ممتلئة بالغيوم الرمادية. آه.. كم تبدو مُثقلة بالحكايات والذكريات! لكني رأيتُ هلالًا يبتسم كطفلٍ مُشاكسٍ.. يبدو هشًّا وصغيرًا. وككل الأشياء البعيدة جدًّا، يبدو رائعًا. فكرتُ في أنه بعد عدة أيام ستكمل الأرض نُزهتها حول الشمس، وسترفعُ ظِلَّها عنه فيصبح بدرًا مكتملًا. ويكون دائرة مضيئة لا نهاية لها. وجدتني سعيدةً، وطبعًا لا مَفرَّ من الغناء رغم أن صوت غنائي يُزعج العصافير.

أُقرِّر أن أفتح كل علبي الملونة، وأمسك بأحجاري لأجلوها حتى تصبح نجومًا لامعة، حتى يصير قلبي مصنع ذكريات.. ذلك قبل أن يزورني الحزن كصديقٍ قديم. فأعودُ لأجلس على الشاطئ بعد أن أنهكني الإبحار في الأحلام التي لا تهدأ رحلاتُها. أجلسُ وثيابي ما زالت مُبتلةً ببقايا خيبتي، ومازالت شمس شغفي وتمردي تلسع جلدي.

-١٨-

سيدي..

إنني أتقنتُ الغرق فيك..

لقد رميتُ المجداف، وعطَّلتُ البوصلة..

مزقتُ الخريطة، وأشعلتُ النيران في كُلِّ أطواق النجاة..

ليتني أستطيع الموت أكثر.

إنني أريدُ الغرق في بُحيرة العسل دون شكٍّ في النجاة..

أريدُ الضَّياعَ في وهمٍ بعيد دون ندمٍ..

أريدُ الأسرَ بين أصابع يديك..

أريدُ الاحتراقَ بنظرةٍ واحدة.

-١٩-

سيدي كيف حالك؟!

اليومَ أجريتُ محاولةً جديدة لقتل الملل والبحث عن مواهبي المجهولة المشكوك في وجودها أصلًا. قررتُ أن أتعلم «الكروشيه». بمساعدة «يوتيوب» تابعتُ العديد من الفيديوهات، وأخذتُ أُقلِّد كل الحركات بالتفصيل.. أمسكتُ الخيط السميك ولففتُه على إصبعي، وفي اليد الأخرى أمسكتُ الإبرة معقوفة النهاية.. انهمكتُ في العمل ساعاتٍ، أُمرِّر الإبرة التي تُمسك بالخيط بين النسيج حتى أُخرِجَ طرف الخيط، وأُكرر الخطوات مئات المرات إلى أن يأكلني الملل. أعدُّ الحلقات، وأحسبُ المسافات، وأشدُّ الخيط مرةً، وأتركُه ينسابُ مرةً. مهمٌّ جدًّا أن أنتبِهَ لطرف الخيط لأن جذبة بسيطة كفيلة بأن تفسد كل ما فعلت، ويعود ما نسجتُه خيطًا وحيدًا كما كان، ويتلاشى مُستقبله في أن يصبح شيئًا. والأهمُّ ألا تحدث عُقدة في الخيط فتقف في طريق الإبرة النشيطة.. أظلُّ أعملُ وأعمل، ويأخذُ النسيجُ من عمر لفافة الخيط فينقص حجمها.

وقايةً من الملل، أضعُ في أذني سمَّاعتي الصغيرة، وأتركها تُغني ما يحلو لها، تسكب في عقلي لحن فرحٍ أحيانًا خائفًا دائمًا. لكني أجد كل الألحان قصيرةً لا تكفي، كلها مبتورة النهايات. والقصائد التي أبهرتني شفرة معانيها أجدها صارت صدئة لا معنى لها.. أخبط قدمي في الأرض كطفلٍ غاضب فألوان خيوطي لا تعجبني.. أُلقى بالإبرة.. ألوم ما أُسميه حظي العاثر مئات المرات؛ لأعود أجدني لا ألوم إلا ذاتي! بعدها تأتي ألحان أحلامي لتلومني.. وتتراقص الأغنيات حين تشتعل بكل ألوان المستقبل.. فأبني بُرجًا عاجيًّا من الأشياء الباهتة أسكنُه وحدي، وأعود لأُمسِكَ بالإبرة كي أنسجَ أحلامًا جديدة.

الآن يجب أن أُطوِّع حلقات النسيج لتصنع منعطفًا صغيرًا لتكتمل الدائرة وتظلُّ الإبرة تدورُ وتدور حولها..

أنا يا سيدي أُعلق كبندول ساعة حائط، أتأرجحُ بين شكٍّ رماديٍّ ويقين زاهي الألوان، وفراشة الأمل المراوغة تتلاعب بي، لا تحطُّ على أزهاري، ولا ترحل بعيدًا فأنساها، تظلُّ تدور وتدور حولي، وذلك الأمل الذي يُعيدني إلى بداية الطريق،لأبقى ألهثُ وراء عقارب ساعتي.

أنا لديَّ لفافةُ خيطٍ لا أعلمُ أيَّ شكلٍ أُعطيها، ولا كم إبرةً لديَّ كي أتمكن من صُنع شيءٍ ما جميل.. أتمنى ألا تنتهي كل خيوطي قبل أن أنتهي أنا من صُنع ما أُريدُ.. أُعالجُ عُقد الخيط كي أُكمل النسيج الذي بدأ يتشكَّل.

أتعرف يا سيدي كم تُشبه أعمارنا لفافة الخيط ولعبة إبرة الكروشيه! سأظلُّ أعملُ إلى أن تنتهي كل خيوطي. سأنسج ما تُعطيني الأيام من ألوان.حتى أصنع نسيجًا من خليط الألوان.. سيكون هو أنا بكل تناقضات أفكاري ومشاعري.

-٢٠-

«إن الحياة بدون موسيقا ستكون غلطة.»

فريدريك نيتشه

سيدي..

أكتب إليك اليوم عن موسيقا أُحبُّها.وحين أكتب عن الموسيقا تكتسب كلماتي سِحرًا آخر، تمامًا كما أكتبُ عنك.

يقول جبران خليل جبران: «الموسيقا هي لغة النفوس، والألحان، نُسيمات لطيفة تهزُّ أوتار العواطف. هي أنامل رقيقة تطرقُ باب المشاعر، وتُنبِّه الذاكرةَ، فتنشر هذه ما طوته الليالي من حوادث أثرت فيها بماضي عبر».

لكن ليس دومًا تبقى الموسيقا أنامل رقيقة. أحيانًا تقيم أعاصير عاطفية لا نهاية لغضبها.أحيانًا لا تكتفي بتنبيه الذاكرة فقط بل تشعلها بالتناقضات. فتستيقظ علامات الاستفهام الواحدة تلو الأخرى. لكن يا سيدي هناك أشياء لا ندرك تفسيرها أبدًا.. وهناك أسئلة تظل علامات استفهامها متحدية باحثة عن إجابة، مثل كيف يمرُّ الزمن مرةً كطفلٍ صغيرٍ يتعلم المشي ويتعثر، ومرةً يركض، ولا يُوقفه في جموحه شيء؟! وكيف تسحرنا تلك الموسيقا

دون غيرها؟! ولماذا تعجبنا تلك الزهرة تحديدًا؟ ولماذا يطيبُ لنا حديث هذا الشخص خاصةً؟! وكذلك لِمَ أطلق زياد الرحباني اسم «آثار على الرمال» على تلك الموسيقا الرائعة؟!

تراه كان يعني آثارًا على الرمال كالتي تختزنها حواسي المرهقة جدًّا من ثرثرة ساعات النهار، لكنها ما زالت متنبهة إلى همس الفراشات، ولا تفوت حديث زهرة تودُّ أن تخبر أحدهم بحكايتها.. ما زالت على أتمِّ استعداد أن تسهر كي تؤنس القمر في سماء وحدته الواسعة.

هي آثار على الرمال، آثار رقيقة لكنها تمتلك من الفوضوية ما يكفي لتغير لوحة أمضت الرياح أعوامًا طويلة في ترتيب حباتها. تلك آثار على الرمال لكنها تجعل الكلمات تتلعثم على لساني، وتتحول إلى حجارة في يدي تُزعج المياه الراكدة.. وتنساب النغمات العذبة في دلالٍ غير عابئة بما اعتراني، ولا ما يلهو بعقلي من أسئلةٍ مُتتابعة في سلسلة لا تنتهي. ودقات البيانو الناعمة تتسلل واحدة تلو الأخرى كفتياتٍ في عرض باليه تكاد تطير الواحدة منهنَّ من فرط الخِفَّة. لكن ما بالها تُؤجِّج نيرانًا لا تهدأ داخلي!، ما بالها تنغرس رماحًا مُسننة في ذاكرتي! ما بال عُذوبتها تنزلق جمراتٍ فوق جدار سكينتي الذي قد بنيته من أحجار صغيرة أجهدني تجميعها من كل زوايا الحكايات! وأُعيد سماعها للمرة المئة، لكنها كأي آثار تتلاشى من كل شيء إلا ذاكرتي أنا.. تحفر وجداني.. لكنها تبقى آثارًا.. آثارًا على رمال ممتدة على موانئ العمر.

-٢١-

«الفرق بين الحب الفاشل والحب الناجح،

أن الأول يُؤلمُك شهرًا،

في حين الثاني يُؤلمُك مدى الحياة»

محمد عفيفي

كيف حالك يا سيدي؟!

عادةً ما تصطحب النساء حقائب منتفخة، يملأْنها بأشياء كثيرة، وأحيانًا عجيبة، ولا تمت لبعضها البعض بصلةٍ، أنا مثلًا دائمًا ما أصطحبُ معى دواء مُسكِّنًا في حقيبتي عَلَّ ضرسي يؤلمني كعادته، لكن ذلك اليوم لم أكن أعلم أني سأخطو على السحاب، وسوف أُختارُ كملكة السعداء. فأُعلِّم العصافير الطيران، وأُحدِّث القطط عن معنى الفرح، وأخبر البحر كيف يروي ظمأه، وأُحدد موعد اكتمال القمر.. سألتني صديقتي: لماذا انقطع غناؤك المشاغب من مدة طويلة؟! بماذا أُجيبك يا صديقتي؟! إنك لا تعلمين أنني أعيشُ أجمل لحنٍ، وأسمعُ أجملَ أغنيةٍ، فما حاجتي للغناء!

لم أكن أغني لأني أحيا لحنًا عذبًا، أسمعُ صوت الرياح والموج موسيقا، أقرأُ كُلَّ الكلمات شعرًا، وأرى كل المناظر حبًّا، كان اللحن ينسابُ من داخلي، والسعادة تنحدرُ من عيني كأدمع التائب.من العسير أن تشرح لطفل معنى التعاسة والملل، كان من العسير إقناعي أني أحيا كل ذلك فعلًا، وأنني لا أتوهم. صورتي أكدتُ لي ذلك. تلك الصورة التي التُقطت لي وأنا أجلسُ بجانبك، ولكن للأسف لم يظهر فيها وجهُك ولا عيناك، لكن ظهرت عيناي أنا. عيناي اللتان كانتا تقطران سعادةً غارقةً في الحيرة وعلامات الاستفهام والشجن. صحيحٌ أنني أجلس بجانبك، وأننا نستمع إلى موسيقاي المفضلة تنطلق من مُكبِّرات صوت حفلٍ صاخب، لكن مازالت تلك الساعة في رأسي تحسبُ بتوجُّسٍ: كم من الوقت أستطيع أن أجلس هكذا؟ كم من الوقت تبقَّى في عمر سعادتي؟ كم من الوقت ستسمح لي بأن أجمع نجومًا وغيومًا في حقيبتي الصغيرة؟!

والآن أحتاجُ إلى آلاف المسكنات علَّها تُخفِّف حيرتي، وآلاف الأغنيات علَّها ترثي وجعي.. أحتاج أن أمضي طوال اليوم، وأنا أغني بصوتٍ أعلى من صوتِك الذي يعبث بعقلي.. فهل يفي مُسكِّنُ الآلام بالغرض الآن؟!

***

-٢٢-

«لن تستطيعي أن تجدي الشمس في غرفة مغلقة»

غسان كنفاني

سيدي.. أسعد الله صباحك..

اليوم كنتُ أجلس في شُرفتي أُتابِعُ طائرةً ورقية تحلق بعيدًا. تتقاذفها الرياحُ من جهةٍ إلى أخرى. تظنُّ أنها حُرةً، وأنها تستطيع أن تُلامس أطراف المجرَّة. لكن حين دقَّقتُ النظر وجدتُ خيطًا طويلًا يمسك بنهايته طفل. أحيانًا يزيدُ طول الخيط فتُحلِّقُ أبعدَ، وأحيانًا يُطوى الخيط فتقترب، وهكذا بدون إرادة. تتحكم فيها الرياح، وذلك الممسك بطرف الخيط.. وعلى الجانب الآخر تحلق تلك العصافير بعيدًا لكن دون خيط يمسك بها. كم أعشق تمردها وحبها للحرية! أنثُرُ حبوب القمح على حافة نافذتي فتأتي على استحياء لتلتقطه بطرف منقارِها، ثم تهرب سريعًا. أظنها تهربُ؛ لأنها تخشى البشر، تخشى أن تصبح مثلهم. أنثُرُ القمح من أجلها لأنعمَ ببعض اللحظات، وأنا أُراقِبُها من كثبٍ علَّني أتعلم منها السعادة.

أما أنا فقد وجهت لنفسي السؤال ذاته: هل أنا حرة؟! حسنًا للإجابة عن ذلك السؤال يلزمني أن أعرف مفهوم «الحرية». إذا كانت الحرية تُشبه مفهوم بطلة رواية إحسان عبد القدوس «أنا حرة».. فالإجابة إذًا: لا، أنا لستُ حرة، ولا أريدُ تلك الحرية لأنها ببساطة مفهوم خاطئ ومُشوَّه، وهذا ما اكتشفته الشخصيةُ في نهاية الرواية. ليست الحرية أن أفعل ما يحلو لي حينما أريد. لأنه هناك أدوار اجتماعية ومسئوليات ومتطلبات عمل يجب القيام بها كي أكون إنسانًا صالحًا في المجتمع.

يقول نجيب محفوظ في روايته «قلب الليل» قولًا حكيمًا أعجبني للغاية: «عندما تمارسها كمتعة للغرائز تكون عبودية مُتنكرة في لباس حُرٍّ. الحرية الحقيقية وعي بالعقل، ورسالته وأهدافه وتحديد الوسائل بحرية الإرادة وتنظيمها التنظيم الدقيق الذي يجريها مجرى القيود، فهي حرية في لباس عبودية».

إنه الجدال الأزلي بين العصفور الحر بأجنحته والطائرة الورقية المُتشبثة بخيطها. وكما تعرفُ، أنا أُدمن الجدال غير المنتهي، لحظات تمرُّ كأنها دهور تلك التي أضيعُ فيها من ذاتي.. حين يُنازع قلبي عقلي، ويسحق يأسي أحلامي المُلوَّنة. فأكونُ أنا الضحية الوحيدة.. أتذكر ذلك الجانب المظلم من غرفتي الصغيرة.. ذلك الرف البعيد الذي أُخفي فيه أشياء أُريد أن أنساها لكنها لا تُنسى.. أشياء صارت، وأشياء أخشاها من المستقبل.فأسأل نفسي السؤال ذاته: «هل أنا الطائرة أم العصفور»؟!

إن الإنسان في كثير من الأحيان يسير مدفوعًا بأهداف من حوله من أقرانه حتى يضيع ذاته، يركض مع الراكضين دون أن يتوقف لحظةً ليسأل نفسه: لِمَ أركض؟ وماذا أريد؟! أشياء براقة كالسلطة، المال، القوة، الشهرة، السفر.. دون أن يسأل نفسه إن كانت تلك الأشياء تعنيه حقًا؟ وفي أثناء ركضه الجنوني ينسى أن يبحث عن ذاته فيصبح «طائرة ورقية» يمسك بطرف خيطها كل تلك الأشياء ذات البريق الساحر.

كل يوم أعدُّ على أصابعي خيباتي، وأُعيدُ كتابتها مئات المرات قبل أن تأتي الأحلام فتمحوها، ويقذفني الأمل بكل قوته، فأرتفعُ وترتفعُ صوت ضحكاتي فأتغنى بالأمل.لكني أظلُّ علامة استفهام في نهاية خطاب تنتظر الإجابة.. وفي النهاية تكتشف الحقيقة.أني العصفور والطائرة الورقية، أني الاثنان معًا، يتبادلان الأدوار والسلطات، كلاهما يلعب دورًا في مكنونات نفسي، كلاهما يرسم لي طريقي.

«الحرية الكاملة في التحرر من الذات».. الحرية هي أن تحلم، أن ترسم قوس قزح خاصًّا بك، أن تصنع نجومًا لامعة تعلقها في سماء الآخرين قبل أن تلملم بقايا أيامك وترحل.

ما رأيك في تلك المسألة؟!

***

-٢٣-

أكتبُ إليك الآن، وقد استيقظتُ لأجد الخبر الذي يمكن أن يعكر صفو يومي، لقد نفد البن من علبتي!

استيقظتُ لأجد علبة البن فارغة، بدون أي سعادة أبدأ بها يومي.. العصافير صامتة! أخشى جديًّا أن تكون موجات الحرارة العالية قد قتلتها ونالت من أجنحتها.. أم تراها تتبع نظام غذائي تفسده حبات القمح! أو تراها تُهملني عن عمدٍ لتزيد المتاعب؟! أيعقل أن تكون نسيت طريق نافذتي؟! لا أعرف، أنا فقط أختلق لها الأعذار كما أفعل مع كل الغائبين لأُلهي قلبي عن قلق يمضغه وانتظار يفتته إلى أجزاء، كل منها يكمل قلقه على حدة! وهكذا قد تآمرت عليَّ الظروف فقد أغلقتُ العطلة محل البن عدة أيام، وهكذا أمضيتُ هذا الصباح الممل دون حتى فنجان القهوةالذي أعطره برائحة الشمس!

وأخيرًا رحلت العطلةُ إذًا فلا داعي للانتظار أكثر من ذلك، ارتديتُ ملابسي، وخرجتُ كي أحظى بالقليل من المشي، ذلك المُسكِّن السريع يُهوِّن

عليَّ الكثير حتى أذهب لذلك المحل العتيق وأشتري بُنًّا.. هأنذا أتأبَّطُ ذراع عقلي المُشتت، وأمشى الهوينى ليحكى لي قصصه، وأنا أُنصت له في انعدام حيلة.أقرأُ عليه روايةً بطلتها تشبهني كثيرًا بحبها للمطر والقهوة وصوت فيروز الذي تلتقط فراشاته من بيت جارتها الغامضة، ولعها، وانتظارها اللامعقول بشغفٍ يُشبهني.

صنعتُ فنجانًا من القهوة، وجلستُ أحتسى تلك الرواية.. «يافا حكاية غياب ومطر» لكاتبة فلسطينية شابةٍ، وجدتُها مصادفةً، بينما كنتُ أتصفحُ الإنترنت. حسنًا، هل كان من الممكن ألا أقرأها وهي تحمل اثنتين من الكلمات السحرية على غلافها الأبيض؟! «يافا» و«مطر»؟ يافا تلك المدينة القديمة التي يوم زارتني في حلمي استيقظتُ مُبتهجةً ورائحة البحر ما زالت عالقةً بأنفي. والمطر الذي يجعلني بمنتهى البساطة أركض كطفلةٍ مبتلة الشعر بسعادة عارمة. جلستُ أقرأ تلك الرواية، وسرعان ما وجدتها تقرؤني.وجدتُها حكاية غياب ومطر، أعجبتني حد الارتباك والبكاء. يافا هو اسم كاتبة قررتُ أن تعتزل الحروف والشهرة وتعتزل معها البشر أيضًا، قررت أن تغلق قلبها على ذكرياتها وجُرحها الغائر، وأغلقت معه باب بيتها، اعتزلت البشر تمامًا، لم تستطع أن تنسى شعور الفَقْد الذي اجتاحها منذ قُتل حسن حبيب طفولتها أمام عينيها. فقد قررت أن تقضي كل عمرها بين جدران

بيتها مع قصة منقوشة تفاصيلها على جدران ذاكرتها. لكن كل تلك الأبواب الموصدة لم تصمد طويلًا أمام فضول قلب صحفية شابة. جارتها التي تنصت لما يهرب من بيت يافا من أغانٍ وموسيقا تحبُّها. تسأل أهل الحي، وتبحث كعصفورة جائعة عن أي معلومةٍ عن تلك الجارة الغامضة. حتى قررت أنها ستكتب إليها خطابات عديدة تحكي لها طويلًا عن حياتها، وعن أسرار قلبها علَّ جارتها تقرؤها، وتقبل أن تفتح بابها وقلبها، وهكذا تطورت الأحداث، حتى وجدت نفسها تتجوَّل في غرفة ذكريات يافا الجارة الغامضة. يافا التي قررت أن تقف على حافة الحياة، وتتحول بإرادتها إلى شبحٍ باهت؛ لأنها لم تستطع مواجهة العالم بوجعها، عادت للحياة وللكتابة مرةً ثانية.

وكأني أسمعُ فيروز تهتف «شو بيبقى» وكأنى أسمع بوضوح الأغنية تنساب من بين سطور تلك الرواية.. «شو بيبقى؟! بيبقى قصص صغيرة عم بتشردها الريح».. الحقيقة أن كل شيء يتغير، وأن الدنيا لا تكفُّ عن إدهاشنا بأشياء غير متوقعة.أشياء كنا نخالها بالأمس فقط مستحيلًا نجد أنفسنا اليوم نحياها. أحداث كنا نقرؤها كرواية حتى نجد أنفسنا أبطالها، ولا نملك شيئًا سوى الدهشة من قوانين الحياة وقرارات قلوبنا. ويأكلنا الفضول لمعرفة المستقبل كقارئ يتلصَّصُ على صفحات الرواية الأخيرة.

***

-٢٤-

«وعدتُك ألَّا أحبُّك..

ثم أمام القرار الكبير، جبنتُ»

نزار قباني

صباح الخير..

لا أعلمُ إن كنتَ تقصدُ بذلك استمرار حيرتي وتأجيج عذابي، أم أنك أردتَ أن تمنحني بعض السعادة بمرور طيفك بحلمي ليلة أمس؟!.

كنتُ قد قررتُ أن أنسى، وظننتُ أني نجحتُ، حتى زرتني الليلة في حلمٍ أمرض فترة نقاهتي. واستيقظتُ وصوتُك في أذني، وملامحك عالقة في مقلتي. لا أعلم أنك زرتني لتبعد موت النسيان أم أنك زرتني لتصبر عقلي الذي لا يتوقف عن لوم قلبي؟!

حين يلوح وجهك -حتى لو حلمًا- أنسى كل شيء حتى الأغاني التي شاركتني وحدتي، أنسى الحروف الأبجدية، اللغات التي أعرفها.. لا يبقى

في ذاكرتي سوى عينيك.. أنسى كل ما تعلمته طوال حياتي ولا أتذكر سوى كيف تنقش ملامحك بالنار على جدار غرفتي.. أبيعُ ألعاب الطفولة وملابس العيد لأشتري بها عدة لحظات أنفقُها بقربك.. وأقطف أجمل زهرة في حديقتي لأُلقي بها في مدارِكَ علَّك تُشفق عليَّ، وتلتقطها، وتضعها في عروة قميصك، فأدخل أنا قُدس الأقداس، وأُضيف نجمة جديدة إلى سمائي.

لكن الأهم أنك أتيتَ، المهم أني رأيتُك لو حلمًا.. لقد تركتهم جميعًا يتنازعون،عقلي وقلبي وأفكاري وأوهامي.. تركتهم جميعًا واستيقظت أُلملم ابتساماتٍ من وسادتي.

يومك سعيد..

-٢٥-

«ونحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلًا»

محمود درويش

سيدي.. كيف حالك؟

أقولُ لنفسي: لماذا أُنفقُ يومي أُفكرُ في الغد؟ ربما يأتي الغد فلا يجدني! أكونُ قد رحلتُ وترحل معي كل خُططي لمستقبل لم أمتلكه يومًا.. أعلم أن طريقة التفكير تلك ربما تكون طفولية، ولكن، أليس أسعد الكائنات هم الأطفال والعصافير؟! كلاهما لا يفكر في الغد.. لماذا لا نسرق منهم طريقتهم في السعادة لنبني بها حياة لنا.. أيامنا التي تشبه حفنة رمال ناعمة تتسرب بين أصابعنا المتشبثة بالأمل. لماذا تغلق كل نوافذ السعادة وتعلق كل خيباتك على مشجب القدر؟! ما الحياة إلا حديث طويل بين الأصدقاء، لحظات صغيرة من السعادة، بعض الأمنيات والأغنيات.. فهلا شرعت نافذتك لعل الحياة تتسرب إلى قلبك، دعني أُلامس حدودك كما تقبل الأمواج أطراف الشاطئ.

في الثقافة الهندية هناك مبدأ يُسمى تناسخ الأرواح. يقول ذلك المعتقد: إن الجسد عندما يموت تذهب روحه لجسد آخر إنسان أو حيوان. يأخذني خيالي بعيدًا فأتخيل أنني كنت طائرًا أبيض قد وقع في حبِّ زُرقة البحر أو عصفورة ملونة لا تكفُّ عن المرح أو شجرة صنوبر عالية ضاربة الجذور، تحمل الحكمة على أوراقها الإبرية. أو شجرة بُنٍّ دائمة الخضرة تقيم في مناخ استوائي غزير الأمطار. أو أكونُ قد كنتُ إنسانًا يعيش في أقاصي الأرض يتحدث لغة أجهلها، كان يحيا منذ مئات السنوات حياة لا أعرف عنها أي شيء.. وتكون روحي قد عاشت آلاف الأعوام.. إنها فكرة تبدو سخيفة للبعض، لكنها دائما تُثير خيالي، وتفسر لي أشياء كثيرة مثل حبي لمتابعة حركات العصافير وولعي بالبحر.. أنا الآن أمسك بقلمي لأخبرك بتلك الكلمات، لا أعرف أين سأكون غدًا؟! في أي مكان ستحطُّ روحي بعد قليل أو إلى أي جزيرة ستهاجر أفكاري؟!.

من يستطيع أن يضمن أيامه أو يمسك بعمره لحظاتٍ؟! كلنا نركض في الحياة خلف بالونات مُلوَّنة ما إن نمسكها حتى نجدها مجرد قبضة ريح، نُشيِّدُ قصورًا من فقاقيع الصابون سرعان ما تتلاشى.نصنعُ أزهارًا، وننتظرُ أن تحط عليها فراشة الحظ فتمنحها لونًا ورونقًا. فلِمَ تمضي نصف يومك تفكر في الغد كيف سيكون وما سيجلب لك؟!. لماذا تحيا نصف حياة؟! كما

يقول جبران: «النصف هو لحظة عجزك وأنت لست بعاجز.. لأنك لست نصف إنسان.. أنت إنسان.. وُجدت كي تعيش الحياة، وليس كى تعيش نصف حياة».

فقط حرِّر كل العصافير المحبوسة في أقفاص روحك، واحْيَ كُلَّ الحياة..

-٢٦-

«ما أغربني عندما أشكو ألمًا فيه لذتي!»

جبران خليل جبران

سيدي..

أنا أركضُ بجنون، أجهلُ سبب ركضي. لا أعلمُ إن كنتُ أهربُ منك أم أركض إلى عينيك، لا أدرى إن كنت أطلب النسيان أم أتعجل الجنون، لا أعلمُ إن كنتُ أبحثُ عن طيفك في دفاتري أم أغلق نافذتي كي لا أرى قمرًا يذكرني بوجهك.أشكو لك طيفك الذي أصبح ينزع عني نومي ويتركني في العراء أُناجي نجومًا أخالها عينيك، وأُصارع هواجسي وظنوني.

أرفع صوتي بالغناء كي لا أسمع صوتك الذي يتردد في جنبات عقلي، أجدُني لا أغني إلا لك، أجدُ أشعاري لك، وألحاني لك، وصوتي لك. أغمضُ عيني وأدور سريعًا حول نفسي علَّني أنتزع طيفك فأجد عينيك تنتظرانني في نومي، وتبقى كلماتك على وسادتي تثرثر في أحلامي.أهربُ إلى

أوراقي لأشكوك، وأكتبُ قرار نسيانك، أجدُ قلمي يكتب لك خطابًا تفوح منه رائحة الحنين،حتى النجوم لا تكتب إلا اسمك، ونسائم الصيف الهاربة من الشمس تحمل لي رائحتك، وأصداء كلماتك،سيدي، وكأني قد وقعتُ في مؤامرة كونية كبيرة، فأصير كعصفور يدور في قفص يبحث عن حرية في لون السماء، يحرق أمنياته في ضرب الهواء كي ينعم ببعض الدفء. أين أبحث عن طريق النسيان؟! ما لي سوى عينيك أجد فيهما ذكرياتي، وأعرف منهما ما يُخبئ القدر، أجد فيهما أحلامي وألعاب طفولتي، أأبحث فيهما عن النسيان أيضًا؟!

سيدي.. يؤسفني أن أخبرك أنه حين تبتلعني بُحيرة العسل أنا أنسى النسيان!

أنا هنا يا سيدي تأكلني وحشة انفرادي، تعبث الأسئلة بما تبقى من عقلي. ترى أي لحنٍ ينسكب في أذنك الآن؟! أي كتاب يحتل يديك؟! أي زهرة تقيم بجانب فراشك؟! يا ترى مَن يسرق أفكارك كما سرقت كل أفكاري؟! يا ترى هل تتأمل القمر كل ليلة مثلي؟ وهل يُخبرك بما أرسلتُ لك من كلماتٍ غارقة في الحنين؟! هل تنتظره كما أنتظره؟! كل تلك الأسئلة تملأ سمائي، وما إن تبدأ أشعة الشمس تلوح حتى تذوب جميعها كحبات الندى.

***

-٢٧-

سيدي..

كان هناك الكثير من الأشياء أودُّ أن أخبرك بها. لماذا اختفيتَ فجأة؟ كنتُ أودُّ أن أناقشك في أمر الكواكب البعيدة، كنتُ أودُّ أن أعرف عدد النجوم؟ وأين تختبئ الذكريات؟ وأين يقيم الشتاء حين يحل الصيف؟ كنتُ أودُّ أن أسمع معك تلك الأغنية. وأن تخبرني عن رأي العصافير في شتاء ذلك العام. كنتُ فقط أرغبُ في أن أحكي لك عن أشيائي الصغيرة ونسهر حتى نقابل الشمس، لماذا اختفيتَ دون أن تترك أثرًا، وكأنك لم تكن يومًا؟!

هل مصيري أن أظل كالطائرة الورقية تتقاذفني الرياح، وتلهو بي الأقدار، ويظلُّ الخيط في يديك، ومفتاح الراحة معك. أدورُ حولك في مدارك السِّري، أتلصص النظر إليك كالقطة الجائعة أو كالعصفور الذي يهرب من الفخ، أهربُ من عينيك؛ لأني أخشى المواجهة.

أخبرني أرجوك: لماذا أنتظر بكل صبرٍ أمام بابك المغلق وأنا أعلم أنك لن تأتي؟!

ولماذا تمرُّ بي دون أن تُلقي سلامًا، وكأنك قد نسيت ملامح وجهي؟!

-٢٨-

سيدي..

حنيني كحنين مريضٍ لا أملٌّ من شفائه للموت.أحلمُ بأن أراك فتعود لي السعادة والأغنيات، لكن سيزداد يأسي وتشتعل خيبتي.. أخشى أن ألقاك بعد غياب طويل، والحنين يأكل كل أفكاري، فأجدُك قد نسيتَ اسمي أو إن تذكرته ستخطئ في حروفه. أنا أخشى أن أراك، رغم ذلك أنا لا أكفُّ عن البحث عنك والركض وراء كل آثارك، لكني حقًّا أخشى لقاءك.. أخشاه لأني أعلم جيدًا أنه لا يساوي أي شيء لديك.. أرأيتَ ذلك الأمل الذي أنتظره أنا، وتحلم به وسادتي كل ليلة لا يعني شيئًا لديك!

-٢٩-

الخامسة صباحًا والشاطئ فارغ تقريبًا. أكتب إليك اليوم، وأنا بصحبة صديقي الأزرق..

ذهبتُ للبحر أسأله عن بعض أسراره. الهواء بارد وعلى الرمال اسم مكتوب محا الموج بعض حروفه، هناك الكثير من الطيور البحرية تلك الطيور التي وقعت في حُبِّ البحر، فقررت أن تعيش بجانبه، بالنسبة لي أنا أحبُّ كل الطيور حتى الغراب بلونه الأسود الأنيق، يُشبه لون الليل حين يهجره القمر.ولا يُزعجني صوته، أراه نغمةً قاسية لابد منها لضبط إيقاع موسيقا الطبيعة.

وقفتُ أنتظرُ حلول الملكة كي يبدأ الاحتفال، همست: «سأكونُ على شرف استقبالك اليوم أيتها الشمس». بدأت الشمس في إرسال أشعة هشةٍ رقيقة كوصيفات تخبرني باقتراب حلول الملكة. ما إن بدأت في الظهور خلف الأمواج البعيدة حتى بدأ البحر في عزف موسيقاه، فترسل الملكة بعض الدفء تحية لرعياها المخلصين.

وحين أنهت الشمس عملها ورحلت تجمَّعت سُحب رمادية في نهاية يوم أرهقه التردُّد بين الشتاء الذي يلملم حقائبه استعدادًا للرحيل، والربيع الذي يحاول أن يعلن عن وجوده بأشعة الشمس الهشة.

أعودُ لأجلس أمام البحر بعد أن أُلقي التحية على سكانه من الطيور. لا أعلمُ من منا يشتكي ويتألم.من يبكى ومن يسمع.. يختلط حزن البحر بظلمة السماء التي غاب عنها القمر دون سبب.لا يظهر سوى خطٍّ رفيع يكاد يتلاشيبين الأمواج، تمامًا كأحلامي..

لا أعلم أي قوى جذبٍ تربطني بالبحر، حين أزوره بعد نوَّةٍ. تضربني رياحه الغاضبة. أتركها تعبث بشعري وأحلامي، وتنتزع مني دموعًا فأقول مازحة كما قال درويش: «أنا لا أبكي.. كل ما في الأمر أن غبار الحنين قد دخلت عيني». أحاول كالمجانين عد موجه دون جدوى، أتنفس على إيقاعه، أحاول فهم ما يقول.فقط أسمعه، فحين يتحدث البحر أجد كل الألحان قصيرةً لا تكفي، كلها مبتورة النهايات.والقصائد التي أبهرتني شفرة معانيها أجدها صارت الآن صدئة لا معنى لها.

كالعادة أستسلمُ إلى ولعي الطفولي بتجميع أصداف البحر، تبهرني تلك الأشياء مُتباينة الألوان والأشكال، تلتفُّ حول نفسها، تحمل رسائل البحر. أجد فيها طفولة نادرة وكأنها هربت من البحر، ولأول مرة تُجرِّبُ مذاق الهواء

الطلق، إنها تعرف أسرار البحر كونها كانت في قلبه، وأن البحر قد أوصاها بكتمان أسراره.عبثًا ما نحاول فعله عندما نسألها عن أغنية البحر.

على أطراف الشاطئ تتجمع أعشاب بحرية دكناء اللون.لا أعلم لِمَ هجرت البحر لترقد على الشاطئ. أظنُّ سحره قد أعياها، أو أنها قد ملت تقلباته! وهناك صخرة وسط الزرقة البحرية، تضربها الأمواج بغير رحمة، تتعلق بها طحالب خضراء اللون ساكنة كل السكون.

ليتني مثلك أيها البحر، أكتبُ ما أريد بموجاتٍ تتلاشى سريعًا.. ليت لي قلبًا كقلبك، وأسرارًا داخل أصداف.. أيها البحر الذي تحتوي الحياة ثم تتظاهر بالحزن والغضب.

-٣٠-

وأني ككل المجانين.. حاولتُ صيد الكواكب

نزار قباني

كيف حالك يا سيدي؟!

أكتبُ لك الآن بعد أن تأملتُ صورتك للمرة المائة بعد الألف، بالرغم من ذلك مازالت تدهشني.أحيانًا أشعر أن صورتك تتنفس، وكأن ثغرك يبتسم لي.. يبدو أنه قد أصابني الجنون من كثرة التحديق إلى الصورة..

ها هي صورتك يا صديقي.. أعلقها على جدار قلبي، أرسمُها فوق مرآتي.. على باب غرفتي. وأظلُّ كل يوم أتلو عليها الأشعار، وأُقدِّم لها ذبائح كلماتي وقصصي الصغيرة، أرسل لها الورود. أشرب معها قهوتي في الصباح والمساء.. أرسمُها كل يوم مئات المرات على أبواب ذاكرتي على أسوار قلبي. أرسمُها بخطوط يدي.. كما أرى الغيوم تكتبها كل يومٍ، وأسراب الطيور المهاجرة ترسم حروفها في إصرار.

لو تتركني أرحل وحدي، لو تأخذ طيفك وتزيل ما علق بثيابي من أقمار روحك، وتتركني وحدي لأعود لظلام لم أكن أرى الدنيا فيه.. لأعود فأصبحُ شبحًا باهتًا وجوده.لا أحدث الأشجار، ولا أنتظر القمر.. لا أغني ولا أزور جزيرة الشعر.. لأعود نقطة سوداء مُصمتة تنتظر جَرَّ القلم، لأعود بُرعمًا خجولًا ينتظر ربيعًا لا يأتي. فانتظارك يا سيدي هو خلفية موسيقية لكل حياتي، هو لحن تعزفه كل الأيام.. يكفي أن أراك مارًّا تُلقي سلامًا عابرًا. فأرد تحيتك بألف سلام.مرة بلساني وبقلبي الذي أعياهُ سِحرُك وانتظارك، وبعينيَّ اللتين كحلتهما برؤيتك، ويدي التي عطرها سلامُك، وأعود لأردَّها مرة بقلمي وكلماتي.. سيدي، أجمل ما في صورتك أنك لن تتركها وترحل! لن تتركها فارغةً، ستبقى عيناك تلمعان، وابتسامتك تشعُّ سحرًا.. لن تتركها كما تمرُّ بي ثم ترحل.. ستظل تقف في ثقة ترتدي قميصًا بلونك المفضل واضعًا يدك في جيبك ناظرًا للكاميرا وأنت تعرف أنك ساحرٌ .. سيدي لماذا تحرر كل ذلك الشغف في نظرة للكاميرا لمجرد صورة؟! لماذا ترمق الكاميرا بكل هذا السحر والتحدي؟!من أين كان لك أن تعرف أنها ستسامرني طوال ليلتي، وعند بزوغ الصبح تقتلني؟!

***

-٣١-

مساء الخير يا سيدي، كيف حالك؟!

كفراشةٍ مراوغة هي الأحلام.. تبدو جميلة جدًّا.. رائعة الألوان.. حُرة.. خفيفة.. لكنها على قدر حُريتها، هي هشة جدًّا.. عنيدة هي الأحلام ومكابرة.. تُولد صغيرةً غير براقةٍ، تكون كيرقة دقيقة تحلم أن تصنع جمالًا..

بالصبر الشغوف تصنع شرنقتها، تنسجها في هدوء، وكأنها تصنع لنفسها سجنًا ما، فتتوقف كل النغمات حتى إشعار آخر.. تمنع عنها الضياء والحرية لكنها تعلمها النضوج، وتعدها بالسعادة التي يَحملُها لها مستقبلٌ بعيد.. بعيد بُعد النجوم عن بعضها البعض.. بالقليل من التمرد تترك شرنقتها لتسافر في هذا العالم الواسع جدًّا فخورة بألوانها.. تخرج الفراشة للبحث عن إجابات مقنعة لأسئلتها الحائرة دائمًا.أين يخفي الهلال ما ضاع منه؟! وكيف تولد النجوم وتموت؟! أين يقيم الصيف حين يحلُّ الشتاء كصديق قديم كثير الحقائب والهدايا؟!

وحين يُعيها دوران الأيام تخلو لحظات إلى نفسها لتعيد التفكير، تُلقي الشكَّفي كل شيء قد اعتبرته من قبل يقينًا.. عندها تجد ما هو يفوق أسرار القمر والنجوم الهائمة على وجهها دهشة.. حين تنظر إلى داخلها، حين تنقل أفكارها بين أجنحتها الهشة وعمرها قليل الأيام وبين روحها التي تسافر منذ قرون وأفكارها المعلقة كهلال يزداد وينقص.. حين تُعيد اكتشاف ذاتها.

أما أحلامي أنا فهي بسيطة حقًّا يا سيدي.. أنا فقط أتمنى السفر معك إلى بلاد بعيدة، مدن لا يشرق فيها إلا الحبُّ.نسافر تحت سماء لا تمطر سوى سعادة.. نبتعد عن موطن الشقاء والمستحيل، أسافرُ إليك وأشرع نوافذ قلبي لتتسرب منها كلمات كتبتها لأجل عينيك، نتركُ ذلك الزمن علَّني أستطيع أن أُجاهر بك. علَّك تُحبِّني ذات صباح شتوي في جيب قميصك، فأتسلل إلى قلبك، فأكتشف أشياء فاتت كولومبوس في رحلته إلى أمريكا، وأصنع قمرًا جديدًا لا يسطع إلا في سمائي، دائم الاستدارة، لا يغيب ولا يهاجر، يرحب بك للسكنى على أراضيه، على كل أراضيه. يُصبح وطنًا لا يرفع سوى أعلامك، ولا يفهم من اللغات سوى صوتك، ولا من السحر إلا عينيك.

آه يا سيدي لو يطيعني المستحيل! لو أطوى الزمن بكلمة، وأقطع المسافة إليك بخطوة، لو أضع بصمة شفافة على قلبك، لو أزور أفكارك ليلة واحدة.. لو أمشي معك ساعات تحت المطر لنذهب إلى مقهى ناءٍ تغسل

الغيوم كل يوم نوافذها الزجاجية ويعطر البحر مقاعدها الخشبية، لترتدي نظارتك التي طالما حسدتها، وتقرأ لي كتابًا لتنظر إلى بين كل سطرين فأنسى الكتاب وصوت المطر ورائحة البحر، وأتفرغ لأصطاد فراشات تهرب من صوتك، وأُللم نجومًا تمطرها ابتسامتُك.

أرأيت كم هي بسيطة أحلامي لكنها على قدر بساطتها هي مستحيلة!

-٣٢-

كيف حالك؟!

ما أجمل البدايات يا ساكني!كل شيء في أوله رائع ويُغري بالسعادة. بداية يوم صيفي حين تتزين السماء بلون الشمس.تلك الشمس التي تقضي ساعات النهار تشعل رؤوسنا بالملل، تبدو عند بزوغ الفجر كأنثى خجول، تبدو كقرص حلوى صغير.. وبدايات الشتاء حين يرسل أول إشارة وتحية منه.. حين تمطر السماء لأول مرة بعد صمت ونوى طوال الصيف.. كل البدايات رائعة حتى الصيف الذي لا أحبُّه، تعجبني بدايته وإعلانه لذاته في وجه الصقيع.. وأنا أيضًا يا صديق كان لي نصيب من البدايات.ذات صباح شتوي رقيق يشبه ذلك تمامًا.. استيقظت سريعًا كي أراك.. حين بدأ ذلك الشعور السحري يدقُّ أبوابي.كنتُ أنتظر أن يأتي الصباح كي أراك.

حتمًا إنك لا تعرف أنني كنت أنتظر الصباح كي أراك!

***

-٣٣-

«إن الفن وحده هو الذي يعطيك بقدر ما تعطيه،

وحده الذي يُشعرك أنك لا تضيع وقتك»

كوليت خوري

سيدي، كيف حالك؟!

تعود الكلمات لتواصل بعثرتها في رأسي دون أن أجد لها بداية، أو أعرف نهايتها.حسنًا، لتظل رأسي مبعثرة كطاولتي، تصحو الأفكار بعد غفوة، ورحيل لتتخبط بين غفوتها في منحنيات رأسي..اليوم كعادتها أفكاري مترددة ومبتورة وفوضوية ينقصها أدوات ربطٍ كي تبدو واضحة، لكن يكفيها صراحتها كي تبدو جميلة.. أنا أؤمن بأن الأشياء التي تبدو كاملة هي كاذبة، لأن عيوبها لا تتضح، تخفيها وسط هالة من الجمال الباذخ. لكن من حُسن الحظ فأنا لا أقع فيذلك الفخ، لأن فتاة تحبُّ القهوة تعرف جيدًا أن بعض الأشياء يكمن سحرها في مرارتها.. في نُقصانها.. أن ثمة أشياء يزيدها غليانها

على مَهَلٍ سحرًا، وأن أجمل الأشياء تلك صعبة المنال، صعبة الإرضاء.. تمامًا كما هي الحياة.. وكما هو الفن أيضًا.

يقال إن الفن بألوانه هو مسكنات سحرية اخترعناها كي نُهوِّن على أنفسنا الحياة، كمسافر في قطار لا يعرف وجهته، يشغل وقته بالرسم على ظهر تذكرة رحيله.أو بالتصفير والنقر على زجاج النافذة المجاورة أو بالتسكع في خياله تمامًا كطفل صغير قُضي عليه أن يُمضي يومه على مقاعد الدراسة، فأخذ يلهو بأفكاره ليهرب من نافذة الصف إلى عالم واسع يرسمه بألوانه.هل الفن هو نتاج الحضارة الإنسانية، يُعطي الحياة معنى حين يعبر عن واقع تجاربنا ومشاعرنا المتناقضة أم أنه مجرد خيالات وهذيان عقولنا التي ملت قوانين الحياة.وأنا، دون العثور على إجابة شافية، كانت أجمل خطاياي حين أدمنتُ الفنَّ، وأسلمتُ شراعي لجُنونه وتركتُ له دفاتري الأكثر سرية ومفاتيح غرف القلب ومعطف المطر والذكريات وخارطة المزاج العصبي، تركته يحتل كل مقاعد الذاكرة، ويملأ كل طرقات العابرين وساحات الانتظار. فحين أنفردُ أنا بأوراقي السرية، أنزعُ عني كل العقل والمنطق، وأرتدي جنوني وقلمي وكفي. وحين تخطفُني أغنية لتعلمني كيف ترتدي الحياةُ ألوانَها وكيف يُرسم الشجن، أشعر وكأني أذوب بين النغمات، وأمتزجُ بعطر اللحن، وأُعجنُ بآهات الآلات الموسيقية، فتلتقطني كل آلة على حدة لتقصَّ

عليَّ الحكاية من وجة نظرها الخاصة، فأصير أنا في تلك اللحظات لستُ أنا، لست هنا.أسافر إلى بلادٍ بعيدة دون جواز سفر، وأستقبل مئات الرسائل دون طابع بريد واحد من عالم يقع وراء القمر.وحين أتقلب بين صفحات كتاب شهي، هنا أكون في المنطقة الخطر، فأصير وكأني طفل في الخمسين، يتقافز على أرض الواقع، وسماء ألوانه على حدٍّ سواء، يضرب الأرض بقدمه إذا غضب، ويتمايل نشوان حين تسحره النغمات، يجاهر بدموعه إذا نهره الحنين. فيمسك بعقلي من يده، يسحبه إلى حيث يريد. يدفعه دون تفكير لكن عقلي يبقى غارقًا في دوامات أفكاره، يجذبه ذلك الناقد القابع في نهاية الممر واضعًا نظارة سميكة على طرف أنفه، يُحلِّل كل شيء ويُجرِّده من خياله، ويُفكك الحروف والنغمات، ويُعيد تركيبها مئات المرات. وفي كل مرة يفتش عن العيوب، وينسى أن الأشياء التي تبدو كاملة هي كاذبة، وأن أجمل الأشياء تلك صعبة المنال، صعبة الإرضاء تمامًا كما هي الحياة وكما هو الفنُّ أيضًا!

أنا التي لا أحترم أيَّ شيء قدر احترامي للفن، بل إنني أقدسه فوق كل ما ابتكره البشر من نشاطات.. دومًا أومن أن الفن هو الحقيقة، هو الحياة بكل مكوناتها، هو السحر الذي يخرج من الروح لتوِّه، ويُبهرني، ويُدهشني حتى تُخطف أنفاسي.. أمام الفن بألوانه أنا أتقافز من الدهشة كطفلةٍ صغيرة لا تمتلك أكثر من الشغف بخلط الألوان والرغبة بمعرفة الأشياء كاملة، يجري

لعاب حواسي لرغبتي الجامحة في اكتشاف تفاصيل الدنيا من خلاله، وأقف على أطراف أصابعي حتى أبلغ مرتفعات الحقيقة، أكون تلك الطفلة التي تؤمن بأن الحياة رائعة وتستحق أن تُعاش وأن الكآبة ليست إلا خيانة للفرح المؤجَّل..

كما أخبرتُك يا سيدي، أنا أعشق الفن بكل ألوانه، الفن ذلك السحر الذي لا ينتهي يدهشني ويقيم داخلي مئات النقاشات المتناقضة، أمام الفن أنا الناقدة القاسية التي تضع نظارتها المُكبِّرة على طرف أنفها لتُحلل بموضوعية وبواقعية كل تفاصيل ما يقع عليه نظرتها الثاقبة من إبداع دون ضجرٍ، دون رضًا بأنصاف الحلول، ورغم ثقتها بأن الفن كالحياة لا كمال فيه فإنه يزعجها النقص، وتُربكها النهايات المفتوحة، أمام الفن أنا الفنانة التي فَقَدَتْ عقلها، وقد اختلط في رأسها الحُلم بالواقع، فأصبحت ترتدي شخصيات ما، تقرأ من رواياتٍ، وتحتلُّ أدوار أبطال أفلامها المُفضَّلة، تتعاطف معهم لدرجة البكاء، تلتمس العذر لأخطائهم، وتُشاركهم تقلبات مشاعرهم. وتذوب كنغمةٍ في الموسيقا حتى تتلاشى راضيةً كغيمة ورديةٍ من الأحلام، ودائمًا شغفها بالفن مشتعلٌ، وعلى أتمِّ استعداد أن تُضحي بكل قائمة أعمالها من أجل المزيد.

-٣٤-

لم أكتب بالأمس لك، كنتُ مُتعبة قليلًا.

كما تعلم فأنا أكره نهار الصيف. ولعل ابتسامتي الحزينة بالأمس حيَّرتك قليلًا. أتعرف يا سيدي أنني أبتسم لك لأكتب رثائي، رغم يقيني بأن المستحيل سيظلُّ مستحيلًا. وأن القمر سيظلُّ لامعًا في السماء بعيدًا جدًّا. لكني أحمِلُك في قلبي وعلى راحتي. أصطحبُك معي لكشف طبيب الأسنان الذي أخافه، أصطحبُك معي للحفلات الصاخبة التي أمقتُها. أضعُك مرةً في قرطي، ومرةً في مشبك شعري. أُعلِّقُك على المشجب كما أعلق أحلامي وملابسي بعد انتهاء يوم ممطر. هل من سببٍ يُقنعني بأن أكفَّ عن ترديد اسمك؟! هل من قانونٍ يُحرِّم على طيفك زيارة أحلامي؟!. كيف أُطفئُ شمعةً أنارت غرفتي وساعدتني أن أقرأ سطورًا في كتاب الحياة حتى ولو كان الثمن احتراق أصابعي؟!

***

-٣٥-

«أيُّ ثمنٍ باهظ يدفعه الإنسان
حتى تتضح له حقيقة نفسه وحقيقة الأشياء»

الطيب صالح

سيدي.. اليوم قرأتُ «الاختراع العجيب»..

الاختراع العجيب هو عنوان قصة لتوفيق الحكيم، قصة فلسفية خيالية لكنها تُلخِّصُ صراع الإنسان مع ذاته، الإنسان الذي يقع ضحية الصراع بين ما يريد وما يستطيع، بين طموحاته وإمكاناته. يتحمل اليوم بكل أعبائه وهمومه أملًا في غدٍ يحظى فيه بتحقيق أحلامه، ولكنه حين يكتشف أن تلك الطموحات هي مجرد مُسكِّنات يتناولها حتى يستطيع تحمُّل حياته سرعان ما يحاول التخلُّص منها!، تمامًا كما فعل بطل تلك القصة، ذلك المهندس الذي عرف ما سيحدث له بعد عشرة أعوام من خلال الاختراع العجيب الذي يتيح له معرفة المستقبل! وجده لا يختلف كثيرًا عن حاضره، لم يرَ شيئًا تَحقَّق

من أحلامه، ووجد أن حياته غدت فُقاعة صابون، وأن من العبث انتظار الغد وهو يعرفه جيدًا، ويعرف ما سيحدث له بكل تفاصيله! كأن يأسه رياح عاتية اقتلعت حياته من جُذورها! ومن الجدير بالذكر والدهشة معًا، أن كل من جرب استخدام هذا الاختراع في القصة انتحر بعد عدة أيام.بدءًا من المهندس الذي جرَّبه لأول مرة، وكل من جرَّبه من خبراء وعمال وحتى مدير الشركة، جميعهم انتحروا! لم يرضَ أحد منهم عن مستقبله الذي شاهده على مرآة الجهاز!

الأحلام دائمًا ناعمة كوسادة طفل، وردية كغيمة شتائية مُثقلة بالذكريات.. هل الأحلام خُلقت لتبقى أحلام؟! حتى إذا ما أنهكك واقعك تتركُ كل شيء وتدلف إلى غرفة صغيرة داخلك. تلك الغرفة التي تضع فيها مكونات سعادتك، وتظل تنسجُ خيوطًا لمستقبلك. أما إذا كانت أحلامك أكبر من إمكاناتك، فاحذر أن تلتفَّ خيوطها حول عنقك، وتتحول إلى أشباح بغيضة تجلب لك التعاسة، وتتابع خيبات الأمل.

في رأيي المتواضع السعادة ليست محطة تصل إليها في آخر الرحلة، بل تجدها في كل شيء في رحلتك. أستمتع بكل شيء حتى الأشياء المتعبة، ربما تجد الشارع مزدحمًا وقذرًا، لكن إذا رفعت رأسك قليلًا سترى أطراف الأشجار حولها زُرقة السماء. يقول ميخائيل نعيمة: «وإن بُليت بداء، وقيل داء عياء، أغمض جفونك تبصر في الداء كل الدواء».

لماذا تُعلق كل السعادة على مشجب يوم معين تُحقق فيه ما تتمنى؟! ربما يأتي ذلك اليوم فتجده يومًا عاديًّا، وربما أسوأ من العادي. كُلُّ يومٍ يمضي بسلامٍ هو يوم سعيد. حتى الآن لم أقابل أحدًا يمتلك الشجاعة ليقول: «أنا إنسانٌ سعيد». الصغار يحلمون بأن يكبروا، وما إن يكبروا حتى يركضوا وراء ذكريات الطفولة والشباب، مَن يرهن كل أحلامه بالسفر لا يشعر بمن يصطلي بالغربة، أما أعمارنا فلا تنتظرنا، تتسرب من بين أصابعنا كحفنة من الرمال. الأيام والسنون لا تعترف بالسعادة المُؤجَّلة.

-٣٦-

ترى يا سيدي ما السعادة؟!

ذلك الشيء المحير جدًّا الذي بحث عنه الفلاسفة والحكماء.. هل للسعادة تعريف واضح كالمصطلحات التي تمتلئ بها الكتب؟! هل للسعادة مكونات وأسباب واضحة؟!

السعادة ليست مصطلحًا علميًّا لنبحث له عن تفسير وتعريف.. السعادة الحقيقية هي التي لا تحتاج لذكر أسبابٍ أو مُبررات.. فقط تسقط على القلب كالمطر.. تقبل كالطيور المسافرة.. هي التي تُولد من الأحداث الصغيرة التي يمكن ألا ينتبه إليها أحد، ولكنها تصنعُ لآخرَ عيدًا.. من يمتلئ قلبه بالجمال والتواضع وحُبِّ العطاء هو من يجد السعادة في أبسط الأمور، يجدها وسط القبح والضوضاء.

السعادة هي امتلاك وعطاء.. أن تصنع أسباب السعادة، وتمتلكها لتزرعها في قلبك فتنمو حين تستقي من ألوان قلبك وذكرياته، ثم تُعطي من ثمارها مَن حولك ليزرعوها في قلوبهم.. حينها ستصبح السعادة في قلبك شجرة وارف ظِلُّها على من حولك.

أما أنا فأجد السعادة في أغنية قفزت لمسامعي، في كتاب يضيف لحياتي حياة، في كوب قهوة أصنعه على مهلٍ، في حديث أصدقاء مَرِحٍ، في رحلة قصيرة أسحقُ فيها همومي تحت إطارات السيارة المسافرة، في تجولي في غرفة ذكريات أحدهم، في نبتةٍ صنعت زهرة في شرفتي، في موسم التوت،في شتاء أنتظره، في قمر أحلم بليلة اكتماله.

السعادة أمر بسيط، ولا يحتاج لفلسفة الفلاسفة، لكنه على قدر بساطته محير جدًّا!

-٣٧-

كمنجتي ووتري المشدود

أنا التي شربت رشفة من النهر لأني كدت أموت عطشًا، أنا نعمت بضوء الشمس لحظاتٍ كيلا يتجمد قلبي، أنا تأملت القمر قليلًا، وكتبتُ لعينيه شعرًا.ما المشكلة إذًا؟! أنقصَ النهرُ عذوبةً لأني حظيت برشفة! أأزعجت الشمس لأني زرعت وردة! أغاب القمر ليلة إضافية لأني كتبتُ له شعرًا!

أنا التي أحترفُ الموت والجنون، وأكتب شعرًا للحياة.. فلا داعي للمزيد من علامات الاستفهام.

-٣٨-

سيدي.. كيف حالك؟!

أيام قليلة وينتهي الصيف عدوي اللدود، ما إن ترتفع درجة الحرارة حتى أشعر بركود، وتصبح كل الأشياء البسيطة غير مُحتمَلة حتى القراءة في الشرفة، الشمس تبدو كوحشٍ غاضبٍ تضعني تحت الإقامة الجبرية! الشارع هو الجحيم بذاته فضلًا عن الزحام الذي يزيده الحرُّ عذابًا. يسلبني نهار الصيف مُتعة المشي، وزيارة الحديقة، وحتى النظر للسماء.لذا أستقبلُ الخريف في سعادةٍ، أملًا في أن تنخفض درجة الحرارة قليلًا، فأنعم ببعض المرح، لذا أنا أنفق كل الصيف في انتظار حلول الخريف والشتاء، كما ينتظر طفلٌ حُلول العيد.

رغم تردُّد الخريف فإنه يحمل في طياته شيئًاما.في الخريف تخبرنا الطبيعة أن لكل نهاية بداية جديدة.. حين تهوي أوراق الشجر، مُعلنةً كل ورقة نهايتها بلونها الأصفر. فترتفع الأغصان الفارغة في حالة حداد مؤقتة، تبدو كأشباح تثير الشجون لكن يعجبني شموخها رغم تخلي أوراقها عنها.وتعزف الأوراق اليابسة معزوفتها الأخيرة حين تتكسر. ويدعوها ميخائيل نعيمة ألا

تلوم الدهر على تقلباته فيقول: «سيري ولا تعاتبي، لا ينفع العتابْ، ولا تلومي الغُصن والريـاح و السَّحاب، فهي إذا خاطبتِها لا تُحســنُ الجواب، والدهر ذو العجائب وباعث النوائب وخانق الرغائب لا يفهم الخطاب».. لكن من قال إن تلك النهاية؟! ما هي إلا شهور قليلة وتتمم الأرض دورتها حول الشمس.ويمضي الخريف والشتاء فتستيقظ البراعم وتعود الشجرة تنبض بلونها الأخضر وتعجُّ بالحياة، فتعود الطيور لتتسابق على المرح.

بعد قليل سيصل الشتاء، وبالنسبة لي أجمل أيام العام، يعوضني شجنه عن كل غضب الصيف وتردد الخريف.كل شيء يتغير عند حلول الشتاء، شمس الشتاء تبدو أم حنون توزع الدفء علينا بالتساوي والقمر يبدو نوره الخافت أكثر سحرًا خلف الغيوم.كل شيء يبدو أروع حتى صوت فيروز، ومذاق القهوة.لكن للأسف الشتاء هنا قصير، يمرُّ سريعًا ككل شيء جميل، كالطفولة، كوجوه الأصدقاء.

إن كان في الصيف شيء يستحقُّ التأمل فهو الغروب.أكتب إليك اليوم وأنا أُمارِسُ متعتي اليومية في مراقبة مشهد الغروب، تلك اللحظات التي تنظر فيها الشمس إلى ساعة يدها، فتقرر جَمْعَ ذيولها استعدادًا للرحيل، وتستيقظ النسيمات العذاب التي اختبأت طوال النهار من غضب الشمس، فتتسلل باردة رقيقة تدغدغ حواسي.

العصافير تعي الأمر جيدًا، تعرف ما عليها فعله. تعود إلى عُشِّها الذي تركته طوال النهار بحثًا عن الرزق وأملًافي بعض المرح، تجتمع على تلك الشجرة كل مساء، أظنُّ أنهم يقيمون حفلة سمر تحكي فيها كل عصفورة لصديقتها عمَّا رأته من أحوال البشر التعساء طوال اليوم، ويشرع عصفور عجوز بإسداء النصح للعصافير الصغار بضرورة الابتعاد عن البشر.أما أنا فكل ما عليَّ فعله هو أن أتجاهل انعدام موهبتي الغنائية، وأصنع كوبًا من القهوة وأنا أغني، أصبحت أفكر جديًّا في إرسال برقية اعتذار لسكان الشقة المجاورة لأنهم يتحملون صوتي كل يوم وأنا أغني لقهوتي.. ولكن ما ذنبي أنا لو أن الحظ ألقى بهم بجانب نافذة المطبخ! وما ذنبي إن كان الله خلقني أعشق الموسيقا، وأعطاني صوتًا مُزعجًا، المهم الآن هو أن أُهرع إلى شُرفتي لأُتابع عشرات الدرجات من الألوان التي تشغل صفحة السماء قبل أن يُسدِل الليل ستاره، ويلمع القمر محاطًا بلون الليل الأنيق، فخور باكتمال استدارته. كم تُشبه حياة الإنسان رحلة الشمس كل يوم! يولد هشًّا كالفجر يثابر ويخطئ ويتعلم إلى أن يصل إلى ذروته، ثم يبدأ في الاضمحلال ويرحل، تمامًا كما تفعل الشمس! لكن هناك من يترك آثارًا لامعة كالنجوم تُلهم الآخرين، وهناك مَنْ يرحل ولا يترك وراءه سوى حفنة من التراب.

أأخبرُك سِرًّا؟! أنا أتمنى لو أصنع نجمةً لامعة.

***

-٣٩-

سيدي.. مارأيُك في موعد لقاء خلف الزمان؟!

هناك في المكان الذي تقبع فيه الأغنيات التي انتهينا من سماعها. هناك حيث تنتظر الذكريات وتختبئ وجوه الناس من ذاكرتنا.

أتدري يا سيدي أنني أشعر بكل معاني الانتزاع حين تمرُّ من أمامي ثم ترحل؟ ليتك تدري كم أبذل من مجهود لأكبح جماح قدمي حتى لا تركضا في جنون خلفك.لو تدري كم آه أكتمُها! وكم يدفعني ذلك الشيء الذي يضخ دمًا كالنار في رأسي وينسى نصيب أطرافي حتى تتجمد، يدفعني للهُتاف باسمك! لكني غالبًا ما أفشل في منع عيني من الركض خلفك أو منع نظراتي من صُنع فقاعة صابون حولك، فأصيرُ كدودةٍ تصنع شرنقة حولك علَّني أتحول إلى فراشةٍ مُلوَّنة إذا ألقيت التحية ثم اختفيت.

***

-٤٠-

اليوم قرأتُ كتابي الأول لجبران خليل جبران، الأديب لبناني الأصل، القادم من بلاد يزرعون فيها الأحلام، كل عمل أدبي له يُعدُّ دستورًا للحياة والحب. كان لقائي الأول بجبران بين صفحات كتاب «الأجنحة المُتكسرة».. إنها ليست صورة جمالية، بل إنني أقول الحقيقة بدقةٍ.. إنني قد قابلت جبران بين صفحات كتابه، قد رأيتُ وجهَه بوضوح بين السطور وحول الكلمات.. سمعتُ صوته يهمس بكلماته الصادقة بين الفواصل.قرأته في جلسة واحدة، ذلك الكتاب الذي يروي فيه قصة «سلمى». يروي قصة روحين كَسَرَ أجنحتهما طمعُ المال والاستبداد.. لقاء روحين خارج نطاق الجسد. فمنذ اللقاء الأول بين سلمى وجبران قد بدأ حوار روحيهما، وعلقت أقمارها بثيابه وقد شرب رشفتي عسل من عينيها، واشتم بروحه عطر كفيها، ذلك العطر الذي تخلل مسام جسدِه، فارتعشت بالحبِّ كل خلاياه.. فهل من مفرٍّ سوى إكمال الطريق؟!

إنها قصة جبران الأولى حين كان في مطلع شبابه.إنها ليست القصة الأولى فحسب، إنها السعادة الأولى، والوجع الأول، إنها خيبة الأمل

الأولى، والحلم الأول في عالم لا يعترف بالأحلام كعملةٍ نقديةٍ، ولا بالغيوم كوسيلة مواصلات! تلك القصة التي مرت به فحررت شيطان أشعاره فولدت الكنايات من ثنايا شجونه في «تلك السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب».. حيث قلبه طفل يتعلم أبجدية الحياة، يتعلم أداء فروض الحب، ولكن عانده القدر فأعطاه الدرس الأول في أوجاع القلب المتيم.. إنها قصته الأولى، أول الأوجاع والمسرات.

«في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إليَّ من وراء أجفان امرأة جميلة، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم».. يقول جبران تلك الكلمات في بداية قصته، تلك الكلمات كانت تعدُّ جواز سفر أدخلني إلى عالم جبران السحري جدًّا.. عادة ما أقرأ كلمات جبران بقلبي.. وغالبًا تسبقني دموعي لتركض بين السطور، وتُبلِّلُني دموعه التي يُخبِّئُها في قلب ألفاظه.

-٤١-

كيف حالك اليوم؟! كيف حال عينيك وأحلامك؟!

أنا يا صديقي لي أحلام مُلوَّنة كأحلام الأطفال، وبالونات العيد. دائمًا ما أتفنن في رسمها ثم أتركها ترتفع عاليًا كالطيور المهاجرة التي تحمل سِرَّها في قلبها وعطر وطنها على أجنحتها، تخبئ أغنياتها وحكاياتها في مناقيرها.. بعدها أتفرغ تمامًا لرتق الأمل، فأذهب في جولة سريعة للنجوم كي أبتاع خيوطًا أنسج بها غدًا جديدًا مليئًا بالأسئلة.. نحن البشر باحثون عن إجابات دومًا، تحاصرنا علامات الاستفهام من جميع الاتجاهات، وتنغرس في عقولنا علامات التعجُّب.

أما أنا ليس لديَّ إجابات قاطعة، ولا أقوال حاسمة.كل ما لي هو ذاكرة ومزاج مُتقلِّب.. ذاكرة تمتلكني بدلًا من أن أعلقها أنا بين مفاتيحي وأنقلها حيث أريد.. فأنا لست خلية سرطانية تتمرد على سنة الحياة، بل إني كالأشجار لا أنسى مكانًا سكنته، وأطلقت فيه جذوري، ملأت زواياه قصاصاتُ أوراق.

ولى مزاج مُتقلِّب يبدو كطفل عنيد يعتبر شراييني وأعصابي ألعابه الصغيرة المشروعة.. يفتح كل ما يريد من أدراج ويعيد ترتيب ملامح الوجوه حولي.. وهو الذي يكتب قائمة أعمالي، ويملأ كل أوراق مذكرتي الصغيرة.

وهذا كل شيء أعرفه عني.. فقط أريدُ حديثًا طويلًا معك لتخبرني أكثر عن نفسي.

-٤٢-

اليوم أكتبُ إليك لأخبرك أحد أحلامي.

كنتُ أظن أنها إحدى أمنيات الأطفال الخيالية، لكن كلما كبرت، وجدتها تكبر معي، وجدت الأمنية ذاتها تلمع في عقلي، أن أطير كعصفورة رمادية الأجنحة، أن أضرب الهواء بذراعي لأرتفع عن الأرض قليلًا ثم أحلق في زرقة السماء اللانهائية. أُحلق في اتجاه القمر الغارق في الغيوم.

وإن صرتُ عصفورةً فلتكن رمادية حرة الأجنحة والرحيل. فلا ماء يغسل أفكاري سوى المطر، ولا شيء يحدُّ حضوري ولا حتى الموت. ليسكنني زخم الحكايات، فأجلسُ على قارعة النسيان أنتظر عودة الشتاء. أنتظر عهدًا جديدًا من الفرح يهمي بسحره على كل كلماتي فتشتعل حروفي دون أن تحترق. فلا حلم يكفيني لأحصي شامات روحي ولا ليل يسع ندوب قلبي التي لا تضمحل.

حتى وإن شرَّدني الماضي، وألقاني المستقبل في آخر قائمة مهامه. فما زال لديَّ حاضر أُخبِّئه في جيب سُترتي المُلوَّنة كما أُخبئ سعادتي في جيب

قميصك. لديَّ شيء آخر لا يقلُّ متعة وخطورة عن الطيران، أن أحلق بين السطور، وأعدو بين الحروف.صحيح أنني ليس لي أجنحة ولا ريش، لكن لي أصابع وأقلامًا، فأكتب أحلامي وخيباتي. يمكنك أن تكتب عن شيء ما لتعترف به حتى، ولو لنفسك كأن تعقد اجتماعًا لمكونات نفسك لمناقشة قرار قد طال الهروب منه، أو تكتب عن شيء كي تنساه وتقتله على الأوراق فلا يعود يصرخ في رأسك، والأكثر وجعًا على الإطلاق أن تكتب كلمات تصير منبعًا لحرائقِك، لكنك لا تستطيع إلا أن تحتفظ بها لأن القدر قد سَرَقَ كل طوابع البريد، لم يمنحنك طابعًا بريدًا، ولا ظرفًا واحدًا كي ترسلها تلك التي تبقى في بريد الأحلام المؤجلة، كرسائلي الكثيرة التي لا تعرف عنوانك فتقبع تحت طائلة المستحيل. لكن ستظل أجمل كلماتي هي تلك التي لم تمر عليها أي عيون قط، كتبتها بحبرٍ فريد؛ لأني عاجزة عن الانفجار إلا في وجه أوراقي.

فها هو شغفي بالحياة يقف فخورًا بتفرده، الذي لم تضربه الاحتمالات المتساوية، ولم يعلق عند منتصف المسافة، لكنه مازال طفلًا يتعلم المشي ويتعثر، فأمسكتُ بقلمي، وأخذتُ أكتب على جدار قلبي وذاكرتي. وقد امتلأت كلها بالحكايات، هلا منحتني جدار قلبك لأكمل قصتي وأُلوِّنُه بزخم الحكايات؟!

***

-٤٣-

سيدي، كيف حالك؟!

كعادة رأسي المليء بالأسئلة، اليوم وجدتُ سؤالًا يطنُّ في رأسي بغير هوادة.. كيف يجري الزمن بأعمارنا في لحظة واحدة؟! وكيف نعيش سنين طويلة كأنها يوم واحد مكرر؟! أحيانًا نحيا كل الحياة في لحظة عابرة، لحظة يتوقف عندها الزمن.. ثمة لحظات قليلة تتشاجر فيها مئات المشاعر والكلمات.. ثمة لحظات عابرة من الزمن تجد نفسك تقف كالمسمار لكن بداخلك أعاصير لا تهدأ ولا تصمت.. ثمة لحظة تعصف بهدوء سكونك وتضعك في قمة زلزال.. عساك بعدها تجد نفسك شخصًا آخر.. تتساءل: كيف كنتُ أعيش قبلها؟!وتتساءل..لكن كل أسئلتك تظل علامة استفهام في نهاية خطاب.

وأنا يصرخ في عقلي شيء ما، يحفر وجداني، شغف لا يهدأ، شغف طفولي بكل تفاصيل الحياة.. كطفل صغير يسكنني يقف على أطراف أصابعه ليطل من شباك الدنيا الواسعة.. يودُّ لو يضمها كلها في قبضته الصغيرة، يعتقد أن عمره وحده لن يكفيه ويودُّ لو يحيا مائة حياة.. لو يحيا ألف عام.. ليعود يُحصي أحلامه على أصابعه، فيجدها لا تكفي، يودُّ لو يحيا كل الحياة.

يخشى ذلك الصغير أن يعود ذات يوم ليتابع حديثه المتقطع مع البحر، صديقه الأزرق الواسع بقدر أحلامه.. المتمرد كشغفه.. ينظر إلى تلك المسافرة في الأفق تلون كل السحب بحُمرتها لتطبع على وجه البحر احتفالات الألوان، بعد قليل ستتوارى خلف الأمواج، وتصطحب معها حُمرتها لتترك السحب رمادية متناثرة لا يمضي سوى وقت قصير حتى يُلقي عليها الليل لونه الوحيد تسفر عن قمر غير مكتمل، لكنه صادق وصريح يعترف بكل نقصه. ويتذكر كيف كان ينفق نصف يومه ممسكًا بطرف خيط طائرته الورقية، كانت تُصيبه سعادة بالغة حين ترتفع أخيرًا، ويراها تكاد تصطدم بالسحب القليلة المتناثرة، وكأنه يفخر بها أمام صديقه البحر.. ما باله اليوم يعود للبحر دون طائرته الورقية، يشكو له عما فعله به ذلك النابض الشقي الذي يدفع الدماء تلو الذكريات في الشرايين المتعبة. يقول الصغير للبحر: «هل لديك دواء لذلك القابع في تجويفي الصدري ذلك العنيد المتمرد الذي يحلو له التصرف وكأنه ليس مني؟ليتني كتلك الصخرة البعيدة.. أزورك منذ أعوام لأجدها مازالت على حالها.. تصطدم بها أمواج غضبك، وهي غير عابئة لا تأكل الأفكار المتمردة قلبها ولا تلهو الأغنيات بوجدانها.. لا يصيبها الحنين ولا يُخيفها المستقبل».

***

-٤٤-

إنه مُفترق الحكايات، وتقاطُع الطرق حيث الوحشة التي تأكل القلب وتُمزق كل الأفكار. فلا يبقى سوى الذكريات ونداؤها الذي لا ينقطع. حين تتشتت كل الجموع بين نيامٍ وقلوبهم تصرخ، وبين أحياء ينسون أن يحيوا. والآن تعود الأفكار لتطل برأسها من بقعة ما من روحي فتتسابق الكلمات في الخروج كالدماء من جرح نازف، أرسمُها على ورقة، أحتسيها على مهلٍ كما أحتسي قهوتي ذات صباح شتائي أوشك على الرحيل. وتمرُّ من حولي كل القصص كصور متتابعة، كفيلم سينمائي صنعه مخرج عبقري بالكثير من الجنون.

اليوم أكتبُ إليك عن الشيء الذي حيَّر كل البشر على مر العصور.. ترى ما الحياة؟! أجد ذلك السؤال يطنُّ في رأسي، ويشتعل عراك الأفكار الذي أكون أنا كل أطرافه، وأسقطُ أنا أيضًا ضحيته الوحيدة، ما الحياة؟! أهي أيام كثيرة نمضيها بغير حساب؟! تتابع ساعات وأيام وسنوات نظنها لا تنتهي. ننفق أعمارنا في اللاشيء حتى تلوح لنا نهاية الطريق، فنتطلع لما فات لنجده

مجرد سراب. نلهث في الركض خلف ما يرسمه لنا مجتمع القبيلة من أشباح باهتة، ويقنعنا أنها لامعة، وأننا لن نحصل على السعادة إلا بها. ترى هل الحياة بسيطة كتتابُع غيوم فوق قمر يتأرجح بين الكمال والعدم كل شهر؟!. كتوالي الفصول على غابةٍ وارفة الظلال، ترى أنها جميلة كرقصة حياة لفراشة حول زهرة؟! تراها شهية كتفاحة ناضجة؟! مليئة ببحيرات العسل التي نتوق إلى رشفة منها، نتمنى لو نقطع الزمن والحدود بخطوة، لو تسلمنا الأبراج العاجية مفتاح المدينة لندخل ونرفع رايات الانتصار.

الحياة حقًّا غريبة يا سيدي، أحيانًا تكون أغرب من القصص الخيالية التي يأخذنا ذكاء مؤلفها، نعجب لأبطالها كيف ارتدت أصواتهم تلك الجمل، ورسمت وجوههم تلك الملامح والانفعالات؟ ولِمَ سلكوا تلك الطرق؟! لكن ما إن نستدير إلى حياتنا حتى نجدها أكثر غرابة وتعقيدًا. أنا مثلًا كيف أعجب لأي قصة أقرؤها وأنا أنغمس في قصة أغرب من أي شيء جال بخاطر كاتب، ما كنت أتخيل أن أجد أجمل أحلامي قد لبست جسدًا وصارت أنت. وما كنتُ أتخيل أن أجد بيننا كل تلك الجبال والبحار من الحيرة والتردد، ما كنت أتخيل أن أحبس في منتصف المسافة قط، وما كنت أتخيل أن أرتكب ذنب الحنين إليك كل يوم وبدماء باردة أخون كل تمردي لأجل عينيك، وأسرقك من عمرك وأرضى بفتاتك كل يوم.

إننا جميعًا بحارة في بحر الحياة الواسع، نغوص في يم الاحتمالات، مدفوعين إلى مرافئ تنتظرنا ولا ننتظرها، بداخلنا جميعًا ذلك البحار المُغامر، أحيانًا ينزوي في ركن ما في أعماقنا، ويحل بدل منه آخر يضع القتال والمغامرة آخر خياراته، أحيانًا يجلس على الشاطئ ليرى الحياة تشتعل أمامه على وجه الأمواج صعودًا وهبوطًا.يبقى على الشاطئ، وقد كادت الشمس تحرق جلده وقاربه، يتساءل: هل عليه أن يترك قاربه للشمس تأكل نسيج خشبه فقط لأنه لا يأمن لسعة المياه؟!

وأحيانًا يتذكر أنه بحار، وقدر البحارة أن يزرعوا ذكرياتهم على كل مرفأ، وإلا فما فائدة تلك الحياة التي تسكن شغاف قلبه، وتستولي على كل عقله؟! عليه أن يعي أنه قد خُلق للرحيل، خُلق كي يرتدي قاربه ويبيت كل يوم في مدينة، كي يقطع أمواجًا تتحدث كل اللغات، حتى اللغات التي لا يعرفها.

هي الحياة تلك الفاتنة صعبة الإرضاء والمنال.هي الحياة تمتحنا أعوامًا، وتكتب قصتنا بالتجاعيد على وجوهنا، هي الحياة التي تملك الفرشاة، وما نحن إلا ألوان. تسلبنا بعض أمانينا لكنها لا تسلبنا الذاكرة أبدًا. لأنها لعبة الواقع والأحلام، وما يفصلهما من رضا لايكفي لملء كل القلوب، يتبعثر الناس على الطريق، من يخشى على قاربه من لسعة الماء، ومن يلقى بنفسه في لججها، من يؤمن ببوصلته وخرائطه ويصدق حدث الطيور البحرية.

وجميعنا نخوض صراعها لأننا فقط، نحبُّ الحياة.

-٤٥-

الآن أصبح يومي فارغًا إلا من الكتابة.. وانتظارك.

حين أجلس أمام أوراق بيضاء أشعر أن العالم كله خلفي. أنه قد فرغ تمامًا إلا من تلك الأوراق العطشى للحبر. عندها تتحول ذراعاي إلى جناحين أو أصير ورقة خضراء في قمة شجرة أو موجة بحرية تركض للشاطئ. عن ماذا أكتب إذًا؟! عن أشجار وعصافير.. عن عادات صنع قهوتي.. عن حديث قمر وبحر.. عن أحلامي ومخاوفي.. عن مكوناتي الصغيرة أكتب. عنك وإليك أكتب يا سيدي، فأنا ليس لي إلا أوراقي وقلم يكتب بحبر من دماء قلبي، أكتبُ قصتي وأكتب الكلمات التي لا أجرؤ على البوح بها أبدًا، وحدها الحروف تضعني تحت طائلة البوح، وجه الورقة البيضاء يستفزني بالانفجار نثرًا والاحتراق شعرًا حتى تمتلئ كل الورقات البيضاء بهواجسي الحبرية، وتعاويذي اللغوية، فأنا ما لي سوى بعض كلمات تذروها الريح والخريف وتُذروني معها.. أنا أمضي كل النهار المزدحم في انتظار حلول مساء أفرغ فيه إلى أوراقي كي أحكي لها عن كل ما دار في رأسي.. أحيانًا تتدلل الكلمات،

وتبخل على جنية الكتابة حتى بأقل القليل، وأحيانًا تركض الكلمات خلفي، وكأنها تتعلق بقدمي وتمنعني من السير. تقول أحلام مستغانمي: «لتكتب، لا يكفي أن يهديك أحد دفترًا وأقلامًا، بل لابد أن يؤذيك أحد إلى حد الكتابة».

أن تكتب تعني أن تفتح كل عُلب قلبك. أن تمسك بأحجارك لتجلوها حتى تصبح نجوم لامعة. أن يصير قلبك مصنع ذكريات. أن تبحث في عيون كل الناس عن قصص وحكايات ترويها وتقلب في وجوه من حولك كصفحات كتاب. تذهب في زيارات إلى عوالم أخرى علَّك تجد شيئًا ما يستحق الكتابة، تعتذر للقمر عن ليالٍ غلبك فيها النعاس وقطعت حديثكم. تسأل كل شجرة تمر بها أن تحكي لك قصتها. أن تكتب يعني أن تضع في كل نصٍّ تكتبه قطعة من روحك، أن تختزن كل دمائك لتسكبها حبرًا، وتجعلها وقودًا لأوراقك.

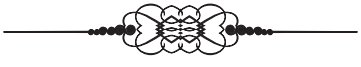

-٤٦-

أتفحَّص حاسوبي للمرة العاشرة بنفاد صبر، بتوجس، باستعطاف للمجهول. أُحملقُ في صفحة «الفيسبوك» الذي صرتُ أحبه لأنه يخبرني مثلما تخبرني أنت أننا قد صرنا صديقين. وللمرة العاشرة أيضًا أجده فارغًا من الأخبار ومن الألوان، أنظر إلى شاشته البلهاء الخالية من الإشارة الوحيدة التي أتمنى أن أراها الآن. خالية من أحرف اسم تكاد تنحفر في مقلتي.

وأسأل نفسي في غضب: لم أقبل بكل هذا العذاب والانتظار؟!، كيف أرضى بفتات وقتك؟!، كيف لا أغضب عليك وأقتلعك من شراييني؟! لماذا أمضي ساعات يومي جالسة على قارعة النسيان أنتظرك أن تجود لي بسعادة إلكترونية عبر عالم افتراضي؟! لأنني كما تقول لي صرتُ صديقتك المفضلة، وصرتَ تحبُّ حديثي الذي لا يُمل. لكن يا سيدي ما لك في قلبي يفوق صداقتنا الكاذبة.

عندها تحط ذكريات الأيام الماضية على ذاكرتي كما تحط فراشة على عمر زهرة، حين كنت راضية بانتظارك دون موعد، حين انتظرتك بصبر في موعد ضربته أنا في خيالي، وأنت ليس لك علم، ولا تفعل شيئًا سوى أنك تقطع

الردهة الطويلة التي تُفضي إلى غرفتك.. وأنا أنتظر بشغف، أنتظر دون ملل، ويمتعني انتظارك، ورؤية ظلك على الحائط قبل أن أراك تخطو في ثقة وثبات يزعج جزيئات الهواء في رئتي وتنتشى له كل دمائي.. وحين تختفي في غرفتك ينتهي الاحتفال، فأغلق أهدابي حتى أحتفظ بذلك المشهد أكبر وقت ممكن.. علَّني أمسك بطيفك بين أهدابي.. تلك الأيام كنتُ أبحث عن آثار أسقطها القدر العنيد سهوًا، وكعصفورة جائعة يشبعني الفتات...

والآن في غيابك أنا أبقى في منفى.. منفى من كل شيء حتى ذاتي. من كل شيء إلا الانتظار الشغوف الذي لا يمل.. تتصارع كل الأفكار في رأسي، ويشتعل فيها جميعها الغضب المتلئ بالحنين.. وأعود أجدُني أهمسُ في حنان لشخص ما علَّه لا يفكر بي الآن: أين أنت يا صديقي؟! لِمَ تركتني هنا أنتظرك؟! ألا تعرف أني بدونك في منفى، ألا تعرف ألم الانتظارالذي يأكل قلبي، ويبدد كل أفكاري، أبقى في صقيع قاسٍ لا يبدده سوى شموسك الممتلئة بالحكايات...

حتى يهتزَّ حاسوبي فرحًا برسالة قادمة منك عبر الأثير فأنفضُ عني أفكاري السابقة، ويتلاشى غضبي عليك كحبات ندى على شفة زهرة ذات صباح صيفي. ويبدأ عهد جديد من الفرح حين أتقلب في حديثك الرحب، وأنزلق من مرتفعات كلماتك الوثيرة، وأتلصص على ستائر كناياتك، وأرتدي استعاراتك كفساتين العيد.

-٤٧-

كيف حالك اليوم؟اليوم أكتب إليك لأخبرك لغزًا صغيرًا عليك حلّه.

كصديق قديم عائد من سفره الطويل يقبل هذا الضيف، تفتح له الباب وتساعده في حمل حقائب هداياه المغلقة بعد. تنزع عنه معطف السفر، وتزيل عنك أتربة الانتظار.تمنحه سُترة وقتك المفضلة لتقف أمامه طفلًا مندهشًا وهو يفتح حقائبه الواحدة بعد الأخرى ويُخرِج أثوابه المُلوَّنة ومتعلقاته الصغيرة وينثرها حولك. بعد قليل تكتشف أنه قد تم احتلالك بالكامل، وأنك لم تعد أنت، بل أصبحتَ أنت وهو معًا.

عسى أن يأتي في زيارته الأولى فيحيرك أمره، ولا تكاد تعرفه، وتتبين ملامحه حتى تدور حوله كعصفور جائع، تنثر حوله الأسئلة التي غالبًا تعود خائبة بالمزيد من علامات الاستفهام، أو قد يأتيك في زيارات متكررة، لكنه في كل مرة قادر على إدهاشك كأول مرة.

عساهُ يزورك فلا تجد له منزلًا في زحام حياتك يحل فيه، لكنه دائمًا يفسح المجال لذاته. دائمًا يعثر لنفسه على جزر بكر داخلك. يأتيك بالأعياد، ينثر

نباتاته البرية، هداياه السحرية وأشواك وروده على حدٍّ سواء فتتحول كل شراييك إلى أوتار شعرية، فيلون العالم بلون اختاره لك بعناية هذا الصباح. وكأنك تكتشف عالمًا جديدًا. يعلمك الانتظار دون موعد، والعطاء دون رجاء، وكيف تُعيد ترتيب الأبجدية داخلك، فتصير حواسك معدة لاستقبال رفات الفراشات. أو علَّه يمنحك فرصة رسم عالمًا كما يحلو لك، فكأنك تفتح بابًا في ردهات روحك لتهرب إلى عالمه الرحب.

ليس هذا كل الأمر، بل أنه يملي عليك بمنتهى المكابرة قوانينه. فلا يبقى أمامك سوى أن تصارع تياره الجارف كسمكة صغيرة حين يستفز تمردك. قد تجلس على بوابة عمرك تنتظر مروره، وتلتمس ألف عذر وأمل لغيابه، قد تختزل أمنياتك في خروج آمن له من مسام جسدك، وهجرة مشروعة له من كل شراييك. وتجمع وروده لتخبئها بين صفحات أيامك لتنام على رفوف ذكرياتك طفلًا سعيدًا آمنًا. قد تتمسك بأطراف ثوبه إذا أراد الرحيل، وقد تتمنى لو تطاوعك إرادتك وتعلن عليه الغضب والعصيان، فتكتب قرار السفر برغبة ضمنية في الرجوع. حين تقرر أن تعاقبه على شغفك، تجد أنك أول الضحايا، وحين تُقيم المحاكمة له تجد أنك أنت هو أول المذنبين. وأحيانًا تشهر عليه سيفك، وتتأهب لمحاولة طردِه، لكنك لا تعرف أنك تطردُ معه أفراحَك أيضًا، فلا يصير لشيءٍ معنًى، فتصبح الأغاني صمتًا، والكلمات

خاوية من المعاني، وأخيرًا حين يرضى يتلاشى كل غضبك عليه كالندى على شفة زهرة ذات يوم مشمس. وتلوم نفسك كيف غضبت عليه، وكيف فكرت لحظاتٍ في قتله. حين يصطحب الصديق الودود كل ألوان الأيام ويرحل –حين يقرر هو الرحيل– يرحل ويترك كل الأماكن فارغة،وكل الأصوات صامتة، وكل الوجوه تتحول إلى دوائر مفرغة دون ملامح، حتى حبر أقلامك يصطحبه معه في رحلته إلى النسيان، فتتسكع في فراغ وحدتك كغريب في شوارع لا يسكنها.

هو ذلك الضيف الذي يحلُّ دون موعدٍ، ولا تعنيه أوراقك الثبوتية ولا فصيلة دمك ولا قوانين بلدتك. لا يعبأ بمعرفة اسمك، ولا يحفظ ملامح وجهك. هو فقط يسير وفق قوانينه المحيرة دائمًا.

أتعرف هذا الضيف؟!

اكتب لي لتخبرني من هو.

-٤٨-

أقول دائمًا في موجات النرجسية والهذيان إنني لست إلا مجموعة شخصيات تتصارع في عقل.. أقول إنهم أحيانًا يتصارعون، وأحيانًا يتغلب أحدهم على الآخرين، وأحيانًا يتوحدون تمامًا.. لكني لا أملك شجاعة القول إنهم جميعًا يتوحدون أمامك أنت.. فها هو الطفل الصغير ينظر إليك في إعجاب منبهرًا.. يتعلق بثوبك وكلتا يديك، يتسلق قدميك ليأخذ موضعه بين كفيك، يستمع أغنية قلبك حين يلتصق بصدرك. وها هو الحكيم ينصت إلى آرائك باندهاش، يحاول أن يُحلِّلها فلا يجد إلا الكثير من الدهشة والإعجاب بمنطقك وفلسفتك، والفنان المرهف يهيم بك شعرًا ونثرًا، ويرى العالم من خلال عدستك كأنه يراه لأول مرة، يحاول أن يقلدك ويتعلم منك كل شيء. حتى الواقعي الجاف قد أعلن الرضا عليك، ووقع لك كل مواثيق الثقة.

***

-٤٩-

سيدي،

أرسلتُ لك تلك الموسيقا مصحوبة برسالة قصيرة: «استمع إلى تلك الموسيقا، إنها تشبه بحيرة عسل»، وجلستُ أنا أُعيدُ سماعها للمرة المليون، وأنتظرُ رأيك فيها، ليتني أخبرك إلى أي حدٍّ عجيب تشبهنا تلك الموسيقا «حب»، تشبه ذلك القرار الذي تتخذه عشرات المرات ثم لا تجد بدًّا من الرجوع فيه، فإما الموت أو الجنون.. أليس الرحيل موت والارتماء في النيران جنون؟! لا تملك إلا أن تكسر كل عهودك كقطع البلور وتحرق كل المواثيق حين تخور قواك، فتفتح بنفسك الأبواب التي أغلقتها، وختمت أسفارها بيديك، تتسلق الأسوار التي شيدتها وتقفز فوق قسمك لتحظى بالقليل من بحيرة العسل.

تلك الموسيقا التي تحكي قصصًا، وتختصر حكايات دون حرف. يرويها صوت الناي ذلك القادم من الأرض، كان نباتًا ارتوى ماء، وحكايات حتى شبع، فطرح نغمات وأوجاعًا كثيرة.. قصبة مجوفة دون أوتار، لكنه

خُلق ليعزف على أوتار القلب، ينفخ فيه عازفه هواء، وكأنه ينفث فيه نيرانًا مسحورة.. تشتعل ولا تحرق! ليبقى صداه يذكرنا بما تفعله بنا الأيام، كأنها تتعمد بثَّ ألف روح في ذكريات نظل نحتفظ بها في عقولنا المرهقة من أجل أمنية سرية صغيرة هي النسيان. نغماته تنبش في الحكايات لتزيل عنها الغبار الذي كوَّنته السنين وحجب عنها الشمس.. ليُعيد رنينه الحكاية من بدايتها.. كأنها وُلدت لتوِّها.

تبدأ الموسيقا تعلو ككل الأشياء الرائعة التي تبدأ صغيرة ثم تكبر على مهلٍ حتى لم يعد لقلبك أن يتحملها وحده، فتبدأ ألوانُها في الفرار من قلبك إلى صوتِك إلى عينيك.. وكأنها أقمارًا تشابكت في ثيابك، وصارت تتبعك كعطرك أينما ذهبت،في نومك وفي صحوك، تعلو النغمات التي تتراقص في ارتفاعات،وتقيم أعيادًا واحتفالات، ولكن ماذا بعد إلا أنك تجد نفسك وحدك غارقًا ثم تهوى من فوق أبراج أحلامك العالية حين لا تجد حقيقة واحدة تتشبث بها، فتنتهي الموسيقا فجأة فتتركك تلملم بقاياك.

قليلًا وسيعاود اللحن تلك الـ«آه» التي تعلن قلة حيلتك، حين تسقط ضحية أفكارك التي تصرخ في أذنك في نومك،وفي صحوك. فتغني بصوت أعلى من صوت جرحك علك تحفظ ألوان قلبك.لأنك لا تعرف من أين

بدأت أحلامك ولا متى تنتهي، فهل تكفيك أغنيتك؟! إنها تنهدات لا تُكتب ورسائل لا يحويها ظرف فلتتكفل تلك النغمات بالأمر.. تراها تكفي؟!

بينما أنا غارقة في أفكاري جاء ردُّك على رسالتي: «رائعة الموسيقا، فعلًا كلنا نتوق إلى بُحيرة العسل، ولو رشفة واحدة تكفي العمر كله».

وأنا يا سيدي قد سلَّمتُ مفتاح مدينتي لشغفي، وأعلنت حنيني على مسامع كل أوردتي وشراييني.. أنا لم أَتُقْ إلى رشفة من بحيرة العسل لتكفيني العمر كله، أنا ألقيتُ بكل مراكبي وأشرعتي فيها غير عابئة بالهزيمة المتوقعة.

-٥٠-

«إذا رجعت بجن وإن تركتك بشقى

لا قدرانة فل ولا قدرانة أبقى»

جوزيف حرب

أكتبُ إليك في الساعة العاشرة ليلًا بتوقيت الحنين.

ساعة متأخرة من ليلٍ لا يرحم الساهرين. قد أخذت نصيبي من فتات وقتك وبقى لي بقية يومي في الانتظار.ما أقسى ساعة الحائط المعلقة بيننا! تلك التي تهمس بالحديث ذاته كل يوم.تلك التي تحسب الدقائق التي أقطعها معك، وتُهمل عَدَّ القرون التي أقضيها في انتظار شروقك. حين تُحدثني أحاول أن أحلق، أن أرفع قدمي عن الأرض وأُكمم فم تلك الساعة الثرثارة، لكني ما إن أرتفع في سماء حديثك الواسعة، حينها يطول حديثنا، ويستقيم كخيوط القمر، أنظر للأرض ويُهاجمني السؤال ذاته كوحشٍ جائع،

ترى متى ستُنهي الحديث وتتركني أسقط من سمائك السابعة؟!حين أجلس أمام مكتبك كالقطة الطيبة، على الكرسي ذاته كل مرة أشتهي أن أجلس معك دون أن أفكر متى سيقتحم حديثنا أحدٌ فيبدد ما نسجنا من خيوط مضيئة أو متى سيحين موعد الرحيل.. لو ألقاك يومًا ما وأنسى أن أحسب كم يتبقى على الموت.

أحاولُ الهروب من أفكاري فأخرج لشرفتي، للتوِّ تستقبلني النسيمات وتخبرني عن الشتاء البعيد.. تعدني بالكثير من السعادة سيأتي بها شتاء هذا العام.. ستقول لي: إنها ستمطر كثيرًا..ستمطر خيرًا.. القمر اليوم هو أيضًا مختبئ خلف الغيوم.. كنت بالأمس أخاله كرة سكر في متناول يدي.. ما باله اليوم يحجب عني ضياءه والحكايات؟! قالوا إنه خسوف ألم به! الآن هو بدر مكتمل الاستدارة والبهاء يتوسط السماء التي مازالت محتفظة بلونها الأزرق قبل أن يُكحلها الليل بصبغته الفريدة. لكن بعد ساعات ستلقى الأرض بظلها عليه فيبدأ في الاختفاء تدريجيًّا حتى يصير ظل أحمر خافت، لذا تجمعت أنظار البشر حوله.وفاء لصديقي أمضيت أنا أيضًا كل الليل أتابعه حتى أغرق التعب رأسي.وقفتُ أتابع القمر وهو يغرق في الظِّل بينما غرقت أنا في أفكاري. ما أغرب الإنسان وخياله! كيف يسافر آلاف الأعوام، ويقطع كل الحدود الجغرافية، حين يظل جسمه حبيس غرفة صغيرة؟

آه يا قمري..لو كان لي جناحان لرفرفتُ صوبك.. لسكنتُ أراضيك، وأخذتُ أشعتك الفضية غطاء.. ما بالك يا صديقي تزداد ارتفاعًا؟ لماذا توغل في الصمت والغيوم؟! ترى هل يشغلك أنت أيضًا هذا الأمر الخطير المكون من ثلاثة أحرف «غدًا». ترقُّب المستقبل الغامض يُثير فضولي حين يصير موضوع للنقاش داخل عقلي المُتعب الذي لا يعرف السكون. لكن تراه يشغلك أنت أيضًا؟! ترى هل أخبرك أحدهم بما سيصير لك الليلة؟! هل أطلعك أحدهم على المقالات العلمية والأبحاث الفلكية كالتي قرأتها عنك؟!

-٥١-

أكتبُ رسالة جديدة.. الرسالة رقم مئة، وهي كالتسعة والتسعين السابقة لن تقرأها أبدًا لأني ببساطة لن أرسلها إليك.. سيدي أجمل كلماتنا التي لا نكتبها لتُقرأ.. بل نكتبها لنطلقها من أقفاص الذكريات، ونُحرِّرها من عقولنا المرهقة، علَّها تتحول إلى بالونات ملونة ترتفع بهمومنا شيئًا فشيئًا ثم لا تلبث أن تتلاشى تمامًا، وتتركنا نصارع هواجسنا.. كما أنني حين أفوز بلقاء خاطف أنسى أن أحكي لك أمورًا كثيرة، بالرغم من عقلي الذي يُمضي الوقت في الاستعداد للقائك بإعداد حديث عذب لعقلك إلا أن حضورك كفيل بإحراق كل الكلمات.. فحين ألقاك تتلاشى كل الحكايات.. أنساها كلها حقًّا.. ألا ترى أنه من الأفضل أن أكتب لك هنا؟!

أما بعد.. سيد الهوى.. كيف حالك؟ كيف حال عينيك؟ أما زالتا تُمطران نجومًا؟ هل مازالتَ تصبُّ عسلًا على القمر؟ كيف حال يديك؟ أما زالتَ مقصدًا للطيور المهاجرة؟ لكن لي استفسار أخير.. أودُّ لو أسألك متى سترفع عني سحرك كي أستطيع أن ألتقط أنفاسي دون أن أهذي باسمك؟! متى

ستحررني من مدارك كي أغازل نجمات الليل الساهرة؟! حين يختبئ قمرك وترحل يا صديقي يرحل معك الزمان والمكان، ويصبح كل شيء سواء.. فكيف أُشفى-إذا كان هناك شفاء- من كل هذا الولع؟!

وبالرغم من ذلك أنا أعلم أن هذا الطريق طويل جدًّا.. وأعلم أن العذاب فيه كالنعيم دونه.. وأعلم أني لستُ إلا جملة اعتراضية في قصيدة أيامك، وأني لا يجوز حضوري إلا مُقيَّدة بعلامات تنصيص مقيتة، وكأني اقتباس مسروق من رواية قديمة.. لكن ترى لماذا مُصرةٌ أنا على إكمال طريقي، وأنا أعلم أنني قاب قوسين أو أدنى من الجنون؟! علَّه عندي الطفولي أو تمردي الأحمق.. لا أدري!

لكن يا سيدي، هناك أشياء كثيرة لا نمتلك لها تفسيرًا، علَّنا نراها عصيَّة على الفهم، مثلًا لم أرَ كل هؤلاء البشر كل يوم، أنظر إلى عيونهم، أسمع أصواتهم ولا أراك، ولا أسمع صوتك؟!ولم أجلس بجانب هذا الشخص الغريب في الحافلة مدة ساعة نقطع الطرقات المزدحمة، ويملؤنا الضجر، ولا أجلس تحت ظلالك خمس دقائق؟! ولِمَجارتي تثقل رأسي بثرثرتها عن أخبارها التافهة، ولا أسمع صوتك يغرد بحكاية واحدة؟!

كان لشاعري محمود درويش أسئلة لم يعثر لها على إجابات أيضًا: «ومن أنت يا سيدي الحب حتى نطيع نواياك، ونشتهي أن نكون ضحاياك؟» علَّه

كان سؤالًا استنكاريًّا لا إجابة له، أو علَّنا نحن الجديرون بالإجابة بدلًا من السيد حب.

سأبحث عن إجابات في رسالتي القادمة.

-٥٢-

يقول محمود درويش: «ويا حب، يا من يسمونه الحب، من أنت حتى تعذب هذا الهواء وتدفع سيدة في الثلاثين من عمرها للجنون؟ وما اسمك يا حب؟ ما اسم البعيد المعلق تحت جفوني؟ومن أنت يا سيدي الحب حتى نطيع نواياك ونشتهي أن نكون ضحاياك؟».

سيدي.. كنت قد وعدتُك في خطابي الماضي أنني سأبحث عن إجابات لتلك الأسئلة التي اقترفها درويش.. من أنت أيها الحب؟!

الحبُّ ذلك الشيء الخطير جدًّا. ذلك التيار الهادر الذي ربما يبدأ بنقرات قطرات خفيفة في يوم صحو. أو ربما يبدأ برعدٍ وبرقٍ وكضربة كهرباء يصعق..

المهم أنه يسير في اتجاه واحد فقط.. فكل خطوة تقطع في طريقه لا سبيل لعودة أبدًا.. كما أن الحب لا يعود ليصير صداقة مثلًا.. الحب الكبير يظل كبير.. أو أنه يخبو تحت رماد الوقت ووطأة المسافات اللعينة.. عساه يقف عند منتصف المسافة.. مثلي!

أنا أومن بالحب، ودومًا أنتظره، وأعلم أنه مثل عصفور بري لا يرضى بأقفاص الظروف، ولا يقبل بالقيود، ولا يحل تحت وطأة أي استدعاء.. فالعصافير الرمادية تحطُّ فجأة مدفوعة بشغف قلبها ولا شيء سواه.. فلا يرضيني الحب الذي يُشبه العصافير الملونة التي تدور في أقفاصها راضية بفضاء لا يسع سوى لنصف جناحيها وقليلًا وتنسى أن لها جناحين من الأساس.. تظنُّ نفسها سمكة، أرنب أو حتى دودة. أي شيء غير أنها عصفورة يحقُّ لها الطيران، وأن الغناء المتمرد هو أهم تُراثها.

لكن يبقى السؤال: مَنْ نحب؟! هل نحب من يشبهنا فنكون بذلك صورة زيتية عنه فنقرؤه كلما عجزنا عن قراءة أنفسنا.. أم أننا نحب من يختلف عنا فنظل نكتشف فيه عوالم وأفلاكًا جديدة كلما تجولنا داخله.. فيظل الشغف مشتعلًا؟! قد حان دورُك لتجيب أنت عن هذا السؤال.

هل من الممكن أن يُحرِّر شخصٌ ما أقماره ونجومه كي تدور في فلك أحدهم ولا يشعر أو يعرف؟! حتى وإن لم يشعر.. فأكيد أنه سيعرف.. يمكن إلا يبادله شعوره لكن لا يمكن أن يتمكن من غض الطرف عنه.. كنت أتساءل: لماذا أحبُّ أحدهم إلى هذا الحد الذي يكاد يودي بعقلي، وهو لا يبادلني الحُبَّ بحبٍّ والجنون بجنون؟ كيف أعلق كل مساراتي في جيب قميصه وهو يمر بي غير عابئ بوجودي؟ لماذا لم يُصِبه هذا المرض الذي ألَمَّ

بي ولِمَ لم يُصب بإدماني؟ هل الحب يُشبه خطابًا بعلم الوصول يجب أن يصل لأحدهم طالما قد تم إرساله.. أو أنه كسرب من الطيور المهاجرة لابد أن تصل لأوطانها مدفوعة بشغف قلبها.. ما هذا الحب؟!

أرى أنني في محاولة الإجابة عن سؤال قد أغرقت لغتي علامات استفهام جديدة.. لست أنا من لديها إجابات وافية ولا كلمات قاطعة.

أذكر حين كنتُ صغيرة أتعجب لِمَ كل الأغاني حُب؟! كنت أسأل: كيف يكون شيء ما رائعًا بحجم الموسيقا والغناء يكرس للحب فقط؟! بعدها عرفت أن الحب والموسيقا هما رفيقان لا يفترقان. بعدها عرفتُ أنه أحيانًا تنوء الكلمات بحمل المشاعر فنرفقها بالموسيقا فتصير بذلك أغنية.

-٥٣-

ماذا أستطيع أن أكتب وكل أحرفي تذوب وتتلاشى.. ماذا أكتبُ واسمك ينخر عظامي، ويأكل يأسي، ويزرعني في سماء أحلام لا أمتلك منها غيمة واحدة؟ ليتنى أسرقك من ذاتك، ومن ظنونك الرمادية، ومن أسئلتك الحائرة بكلمتين وأغنية، كما تشعل أنت التفاؤل في دمي. كما تجمع الأفكار اليائسة من عقلي برقة الذي يزيل عن ورد أشواكها.. وبكل بساطة تشعل النار في كل مللي وخوفي.. تجعلني أسخر من يأسي.. كيف تزرعني في دنيا وردية حين تخبرني أنني يجدر بي أن أسعد وأملأ الدنيا أغاني..

-٥٤-

«قصتي معك أحلى قصيدة أكتبُها، لكنها قصيدة لا تُكتب،

فاللقطات الإنسانية تفيض بها العين فقط.»

كوليت الخوري

لماذا يا سيدي علقنا عند منتصف المسافة؟! لماذا لا نقطع خطوات أخرى طالما لا سبيل للعودة في طريقنا؟! يا سيدي، ما أقصى منتصف المسافة تلك! عندها تبدو كل الأشياء باهتة، لكن لاشيء يوجع فيها للمنتهى ولا أغنيات يدوم صداها. وأفكاري التي تشبه البومة البنية الأنيقة، تُؤثِر دائمًا الوقوف عند منتصف المسافة. تخبرني أن أبقى عند منتصف الأشياء.لكنها سرعان ما تعود لتلوم خوفي على احتراق أحلامي التي لا تمتلك جراءة الحديث عن نفسها، لكنها تجيد أكلي أنا، وأكل حتى عظامي.

يقول جبران: «أنا لا أتجاهل، أنا فقط أحاول أن تبقى روحي بعيدة لكيلا تتعلق بشيء تحبه اليوم ويزول غدًا».. وحين أُقرِّرُ ثائرة ألا أجعل شيئًا

يهزمني ولا حتى عينيك، أجدني أسلم راياتي ومفتاح مدينتي لأشياء صغيرة كالقهوة والموسيقا.. وعينيك.

ماذا أنتفع إذا صرت بندولًا يمضي حياته ذهابًا وإيابًا.. يتأرجح بين طرفي الحياة، بين الحب واللاحب، بين الطرفين المتشابهين حد الجنون. أظل معلقة بين قائمة أصدقائك بينما أنت تشغل كل مساحة قلبي وتملأ كل أوراقي. ذلك النابض الدم في الشرايين المتعبة، حاكم ظالم فخور بظلمه دائمًا.. يظلُّ يُلقي بي في بحور هربت منها موانيها.. يصنع الهموم من اللاشيء.. يرسم أحلامًا من فراشة هاربة.. شتاؤه لا يمطر، وصيفه لا يدفئ. والنتيجة أن أظل الضحية الوحيدة.. ضحية ذلك النابض الشقي، الذي يرى الصمت، ويسمع الألوان، ويحكي بغير حروف.. قلبي الذي علمني كيف تُزرع الأحلام، ولكنه لم يُخبرني كيف تُقطف ثمارها، فيتركني أُصارع هواجسي وظنوني. وأظلُ أركض، ولا أعلم أين ستحطُّ أجنحة أحلامي المهاجرة. ولا أعرف مرفأ لحروفي المسافرة. تذروها النسيمات الساحرة الباردة. وتتلاعب بها عيناك اللتان اعتادتا أن تنيرا وتكونا موطنًا للفراشات.. وأنا ماذا أملك غير أن أغوص في تلك الحياة، يومًا أركض وراء فراشاتها، ويوما أقرأ أوجاعها لأنصت لها يومًا تشتكي، ويومًا يتردد صدى ضحكاتها بلا سكون.

***

-٥٥-

«لا يزال التحديق في عينيك

يُشبه متعة إحصاء النجوم في ليلة صحراوية».

غادة السمان

اليوم وأنا أتعاطى صوتك كقهوة الصباح، أخبرتني أنك شاهدتَ فيلمًا حزينًا أبكاك كثيرًا. لم أكن يومًا من أولئك المستنكرين لدموع الرجال، فالدموع كالضحكات لا فرق بينهما سوى في اتجاه المشاعر. فلماذا إذًا نخجلُ من دموعنا؟! لكن يا سيدي، اعتصر خبر دموعك قلبي.. وتمنيتُ لو أجمع تلك الدموع في كفي، كنت قبَّلتهم ألفًا، كنت خبَّأتهم بين صفحات كتابي كوردة تتوارى عن النسيان وتتحدى الزمن.. آه يا سيدي.. ولم تبكِ هاتان العينان العميقتان ذواتا النظرات الواثقة.. هاتان العينان الصافيتان إلا من هلاكي، هاتان العينان اللتان تحتلهما بحيرات العسل، هاتان اللتان لهما نظرة تضربني كالإعصار، تزلزل مدينتي، نظرة كالصاعقة تهزم كل أسواري وتزيل

عني ستائري.. هاتان اللتان تجعلانني أمامهما كطفل ركض تحت المطر حتى غرقت ثيابه كلها حين تقرأ كل أفكاري وكأنها مكتوبة على جبيني.

أتستحق الدموعَ هاتان العينان؟!

-٥٦-

أسعد الله صباحك يا سيدي..

دائمًا ما أظنُّ أن الكتب كالبشر.. معظمهم يمر مرور الكرام، عابرون مجرد عبورهم ينسينا ملامح وجوههم، وآخرون يضيفون سطورًا في قصتنا فتصير لهم ألفة الأصدقاء، نتعلق برائحة الأوراق وملمسها وصورة الغلاف، نعلقهم على مشجب ذكرياتنا.. ومن الكتب الأقلية الباقية، هؤلاء الذين يعصفون بالوجدان، وينزرعون في العمر كسيف.. ورغم رحيلهم يبقى حضورهم طاغيًا.. وكلماتهم تتردد صداها. لكن كتاب منك هو حتمًا ينتمي لنوع جديد من الكتب، أحببتُ هديتك لدرجة أني أخاف إذا أريتهم كتابًا أهديتني إياه أن يروك بين صفحاته أو يقرؤونك بين سطوره.. كما أخاف أن تبوح سعادة صوتي وأنا أتحدث عنك، أو تهرب من حلقي فراشة وأنا أنطق اسمك، لذا حين أهديتني كتابًا خبَّأتُه على عجلٍ في حقيبتي. لم يصمد فضولي طويلًا، حتى اختليتُ بنفسي لأخرجه من حقيبتي بقُدسيةٍ تكفي لأخرج كنزًا من مخبئه.

حتى وإن كان إهداؤك كلماتٍ عادية، لكن يكفي أنها بخطِّك لتكون أغلى كنوزي، يكفي أنك كتبت تلك الكلمات لأجلي. هذا يكفي ليكون لثنايات الخطوط حين تصنع الحروف تأثير السحر ومفعول المخدر الذي سرى في عروقي، واقتحم كل شراييني المُتعَبة.. حقًّا يكفي.

أقول دائمًا: إن كل يدٍ لها خطٌّ يشبه صاحبها، وخطُّك يشبهك يا سيدي، ويشبه بحيرة العسل التي تسكن عينيك.. للتوِّ تذكرت ما قد صار منذ أكثر من عام حين استأذنتني في ورقة من دفتري، حينها أمسكتُ بقلمي، وكتبتُ على هامش الدفتر أرقامًا قليلة، ووضعت في زاويا أخرى خطوطًا فوضوية، ثم أخذتَ الورقة وشكرتني في اقتضاب الغرباء.. واليوم كيف لي ألا أقيم الأفراح وأعلق الزينات على باب قلبي حين تكتب لأجلي كلماتٍ لم يَرَها أحد سواي.. كيف لي ألا أكتبها على مدخل مدينتي بجانب اسمي؟ كيف لي ألا أجعلها عنوانًا لكل أحلامي وأغنياتي الملونة؟وكيف أتوقف عن قول «شكرًا»؟!

شكرًا لك جدًّا.

***

-٥٧-

اليوم أكتبُ إليك وأنا في الطريق، فقد اتخذتُ قرارًا حاسمًا بأني سأخبرُك أجمل أسراري لأُنهي تلك الحيرة المتبعثرة في أرجاء أوراقي، وأبتر الانتظار الذي يأكل أفكاري وعظامي. سألقي برسائلي تلك أمامك، سأُريك أجمل كلماتي لمن كتبت، ولتذهب للجحيم تلك التقاليد التي تمنعني من البوح لك أولًا بتلك الكلمة السحرية. حين أراك سأُخبرك حتمًا، وليكن لحيرتي وتردُّدك نهاية. لكن كلما قاربت على الوصول تسارعت نبضات ذلك الشقي بين ضلوعي، تتدافع الدماء في كل شراييني وتهمل نصيب قدمي فترتعشان كقدمي طفل صغير يجرب المشي لأول مرة. فالسفر صوبك يُشبه تسلق قمة جبل شاهق الارتفاع.

تتابع الأنفاس متلاحقة.. تتسارع.. تتقطع.. ولا تطيعني في طلب المزيد من الهواء والصبر. وعيناي وقد قررتا أنهما لن تريا أحدًا ما دامتا هما في الانتظار، فأتشاغل بالنظر إلى قطط الشوارع التي تقابلني أثناء سيري، فتفزع وتتوارى بمجرد رؤيتي فيطالني فزعها أحيانًا.

تتابع البنايات والبشر حولي في الطريق، لكن لا أرى سوى الوجه ذاته يقترب، يدنو ويدنو، وكلما هممتُ أن أبلغه أجده يبتعد كسرابٍ كاذب. هكذا

أنت أيها الحلم الساحر، فأنا كلما شربت من واحتك ازددتُ عطشًا والارتماء في مدارك لا يزيدني سوى تعبٍ، والعدو نحوك لا يزيدني سوى نوى.

في الانتظار لا أغاني ترضيني ولا نغمات، في الانتظار لا صوت إلا الصمت، إلا صراخ الوقت، ولحن الانتظار المفعم بالحنين، المتوثب إلى الخلاص.. إلى النجاة والنجاح، فما فائدة الأغنيات؟!. لكن لم يبقَّ إلا القليل. نظرتُ إلى ساعة عمري فوجدتُ العقارب تتأرجح في جنونٍ، وهنا تتضح لي النسبية كما لم تتضح لأينشتاين ذاته. ففي حضرتك يعدو الزمان عدوًا، حتى أن الدقائق تتعثر في ثوانيها، وتحتار عقارب الساعة إلى أي زمن تشير. أما أنا فأكون قد وصلت لعالم آخر، قد التحقتُ بتقويم جديد لا تعرفه سوى أرض الأحلام. وعندها يا سيدي أحاول أن أختزن قليلًا من السعادة تعينني في صحارى وحدتي، أُجرِّبُ أن أختزن صوتك.. بعض النجوم من عينيك.. انفراج شفتيك عن كلمات عسلية.. وأُعيد حفظ ملامح وجهك كتلميذ مجتهد ونقشها على كل جدران ذاكرتي بالنار. عندها أتذكر كيف كان يحبو الزمن في انتظارك، كيف كان يمر ولا يمر، كيف كان يزحف زحفًا كأنه يسبح في طحالب لزجة.

القليل فقط وأصل، وعندها أطرقُ البابَ وأدخل وأشغل مقعدي المُفضل المُعدَّ لي وعندها سأنسى اضطراب الدماء في شراييني، ولن يصل صوت أنفاسي المتتابعة إلى أذني. عندها سأتفرغ لامتصاص صوتك، وأجمع

في حقيبتي الصغيرة نجومًا تمطرها عيناك. لكن الآن قدميَّ تتعثران في الطريق، وتكادان تتوهان رغم أنهما تعرفان الطريق جيدًا، يرسمانه كل ليلة و كل صباح. تتردد قدماي لحظاتٍ وتفكران في طريق العودة ولو تؤثران السلامة تعودان أدبارهما.

وهأنا يا سيدي الحلم أوشكت على الوصول، لكن لِمَ يبدو الطريق طويلًا إلى هذا الحد؟! لماذا الطريق إليك شاقٌّ يكتنفه التعبَ والتردد؟! لكن لا داعي للشكوى، قالوا: «أحمل عبء قلبك وحدك»، أحفر هوة عميقة ألقي فيها بكل يأسك.. وألقي معه ببذرة، غدًا سوف تزهر شجرة حكمة لتظلل على عقلك.

وها هو قلبي تسارعت دقاتُه أكثر، وقدماي مازالتا تتعثران وتوصلان محاولة الركض حتى وصلت أخيرًا إلى الباب المنشود، لكن قد ذابت يداي، ولم تقويا على نقر بابك.. فجلستُ أزيل بقايا معركة الانتظار.. وأنتظرُ غدًا آخر أواصل فيه متعة الانتظار.. غدًا آخر يمنحني عهدًا جديدًا، والقليل من القوى علَّها تكفي لنقر الباب لأخبرك بسرٍّ ما أخبئه في جعبة أسراري.. أو علَّها تأتي ضربة حظ عمياء وتُلقي بيفي عالم السعداء.. حيث صوتك وكلماتك ونجوم عينيك.

***

-٥٨-

«فالصمتُ في حرمِ الجمال جمال»

نزار قباني

صباح الخير يا سيد الهوى.

تسألني مرارًا: لِمَ تتركينني أتحدث كل الوقت؟!

أجيبك: لا شيء، فقط ليس لديَّ شيء مهمٌّ لأقوله.

ماذا بإمكاني أن أقول لك؟! حين تتحدث يا سيدي تقف كل ذكرياتي وأحلامي كطلاب منتظمين في صف.. كجياع منتظرين وقت الطعام.. حتى الأفكار التي تتصارع داخلي والكلمات التي تشتعل داخل رأسي في حرب لا تهدأ تعلن الهدنة حتى تتفرغ للإصغاء إليك.. لتعشق صوتك، وتتعلق بكلماتك، وتذوب في كل فصلةٍ وهمسة.. وأودُّ لو أجمع قوس قزح ترسمه الأنفاس التي تخرج بالكلمات في فضاء الغرفة.. فأنا يا سيدي لا أستمع إلى

حديثك فقط.. أنا أسمع ما تقوله وما يقوله صوتك، وما يدور في عقلك، ولا تقوله.. أن أستمع إليك كأني لأول مرة أكتشف أن لديَّ آذانًا.. وكأني طفل لأول مرة يعي مذاق الكلمات.. وكأني أكتشف هواية جديدة.. فكيف يُمكنني قطع هذا الهدير لأتحدث أنا بأي كلام؟! من الطبيعي أن أسكت حتى يواصل ذلك الهدير بوحه بأسرار الكون وأسرار قلبي.. ليسكت كل شيء حتى عصافير شجرة التوت، ولتنزع عنها خريفها وتنصت إليك.. ولتتكلم أنت حتى يملَّ حديثُك زيارة مسامعي.. هل تسألني: لِمَ لا تُطيلين الحديث؟ ولِمَ تتركينني أنا أتحدث كل الوقت؟!

-٥٩-

«نحن لا نُشفى من ذاكرتنا.. ولهذا نحن نرسم..

ولهذا نحن نكتب.. ولهذا يموت بعضنا أيضًا»

أحلام مستغانمي

أكتبُ إليك هذا الخطاب فتنساب الألفاظ مسحورةً كأرانب جائعة من بين أصابعي، وتتعثر الكلمات إثر بعضها أمام قلمي، وتستقيم القافية في فمي. فتستقي كل الفواصل والكلمات الغجرية من سحرٍ خفي حتى تصبح قصيدة لم يحلم بها شاعر من قبل.. رغم أنني أكتبُ إليك كمن يكتب إلى شخصٍ يجهل اللغة، فلا أنا أرسل ولا أنت تقرأ، لكن هل لي سوى قلمي يجعلني مفتوحة العينين، أنظرُ إلى غدٍ تسوقه مصادفات غير قابلة للتفسير! بينما أنهمك أنا في تشييد قصور من فقاقيع صابون. فحين أُغلق عيني يأتي وجهك وكلماتي لتنبش جدار ذاكرتي، وتفتح علب ذكرياتي، فأصير كمن يمشط الغيوم بفرشاة أسنان. وتلك هي ضريبة أن تكتب، عندها تكون

غرفتك الأكثر سرية مفتوحة على الملأ، ستواجه نفسك بكل الحقائق حتى المؤلم منها، وتراها متتابعة كمعرض صور، عندها سيقدر عليك أن تنتحب علنًا على الأوراق، وسيقرؤها العابرون غير مبالين كمن يمر بحريق ليشعل سيجارته ويمضي.

كل مرةٍ ألقاك هو موسم ربيع جديدٍ يا سيدي.. كل لقاء بيننا هو حرب باردة بين عينيك وبيني.. كل وعد لقاء بيننا هو بحرٌ من احتمالات سعادة ستُعمي عينيَّ عن الواقع السخيف أو بركان خيبة سيحرق كل شيء في طريقه حتى عظامي.. كل اتفاق بالعودة وقطع جميع الخيوط وهدم الجسور به اتفاق ضمني يصرخ: «أنا مجرد كاذب، لا تصدقني»، فأين يا ترى طريق العودة؟!

كُلُّ حديثٍ جديد بيننا هو آثار جديدة على رمال العمر الساكنة.. في كل مرة تستقيم خيوط حديثنا نبدأ في محاولة تخطي الأسوار التي شيَّدناها.. نحاول أن نحفر كوةصغيرة فيها، نتلاعب بالكلمات، نرتدي الاستعارات والكنايات علَّها تخفف حدة الحقيقة المطلقة، تلك الحقيقة التي يعرفها كلانا، لكن لا نبوح بها أبدًا.. كل حديث جديد على خط النار والمراوغة، نسير بمحاذاة الحقيقة، لكن لا نقطعُ طريقها أبدًا، نسير على ضفاف الصراحة، لكن لا نأخذ قاربًا لنخوض غمارها أبدًا.. علَّك تخشى الحب؟!

أنا لا أغضب منك، لكن فقط يستفز شغفي الزائد بك تمردي حين يهزمه بمنتهى البساطة. كم من مرة أقرر أن أركض من حديقتك غاضبة، أقرر أن أختبئ لأراقب آثار غيابي وهل سيبدو عليك أعراض شوق؟ وحين أمشي بعض الخطوات أجدني لا أُعذِّبُ سوى ذاتي بهذا القرار الطفولي جدًّا.. حين أقرر أن أعاقبك على شغفي أجدني أول الضحايا وحين أقيم المحكمة لعينيك أجدني أول المذنبين.. لأني أحبُّك.. كبُعد عينيك عني.. كقُرب روحك مني.. بحجم خيبتي وخطورة تمردي.. بقلبي الطفولي وعقلي الكهل.

وها نحن نُعيد اللُّعبة الخطرة ذاتها، أنا أتصنع اللامبالاة، وأنت تطالع في جرائد الصباح نبأ موتي غرقًا في عسل عينيك.. وتبتسم في عدم اكتراث فتبتسم صورتي في صفحة الجريدة غير مبالية بخطورة الوضع متجاهلة بهاء الحدث، وتتراقص أحرف اسمي في الرثاء، وأصبح أنا كحزمة قشٍّ سريع الاشتعال والنسيان.

بعدها نغسل أيادينا من الحنين، ونرتدي قفازات المنطق، ونعتلي طاولة الحوار الفلسفي ونعيد النقاش الذي نبدو فيه مجرد صديقي عاديين.

أما أنا فأُجيد لعبة أكثر خطورة. كأن أنهمك في كتابة خطاب جديد.. أعودُ كي أجمع حروفي من منعطفات اللغة لأكتب خطابًا لن يرسل.

***

-٦٠-

ماذا أكتب عن اليوم؟!

جالسًا أنت أمامي، كصغير ركض تحت المطر حتى غرقت ثيابه كلها. يدُك ترتعش، أنفاسُك ترتعش، روُحك ترتعش. وكلماتك كلها تتخبط في بعضها البعض. تسعى في ترتيبها كأنك تبني بيتًا على الرمال.. وأنا جالسة أمامك تحولت إلى علامة استفهام كبيرة.. كأني أمٌّ أمام طفلها يعترف بذنبه الصغير، كأنني أمام أرضٍ جديدة تفتح لي أبواب أسرارها واحدًا تلو الآخر.

تخبرني قصة قلبك الذي كان في سبات عميق من الوحدة والحيرة.. تقول لي إن عيني طردتك من هذا السُّبات، وأنني قد كسرت بأظفاري حاجز سكونك، وأنني قد أقمتُ إعصارًا بمروري في أيامك أودى بكل خمولك، وأنني قد أحرقتُ بصوتي كل ترددك، وأشعلت النيران في حيرتك.. كيف تُريدني أن أفهم قصة قلبك، وأنا قد اعتبرتُها سابقًا حلمًا بعيد المنال؟! فأنا في الماضي احترت بين حديث عينيك اللتين لا تكذبان، بين ندائهما المستمر المتوسل بألا أصدق حديثك المتحفظ، وكلماتك المقتضبة، حتى أنه لاهتزازات صوتك وتنهُّدات أنفاسك حديث آخر غير الذي ترويه كلماتك المجردة.

تعدو أنفاسُك وراء الكلمات لتتوقف عند كل منعطفٍ، وتنظر إليَّ بعينين متسائلتين: «هل تفهمين ما أقول؟!» وقبل أن أغوص داخلي لأُفتش عن كلمات تُناسب جلال الموقف، تجيب عيناي بنظرات حائرة، فتكمل حديثك المتقطع.. أقول: «لا أفهم».

الحقيقة أنني قد فهمتُ ما تعني لكن لم يكن لعقلي أن يُصدِّق.. عقلي شرع ينتهر قلبي، ويُلمم قوس قزح تصنعه مشاعري عقب أمطار حنينٍ رعدية.. ككل مرة قلت: من المؤكد أنني قد أخطأتُ فهم لغتك.. من غير المعقول أنك تريد أخيرًا أن تعترف لي بهذا الأمر الخطير السحري.

إنك لا تعلم شيئًا يا سيدي.. لا تعلم أي رياح عاصفة تناوبت على سلامي، ولا أي أمواج اقتلعتني من هدوء وحدتي لتُلقي بى بين عينيك الصافيتين إلا من هلاكي.. جئتُ بعد عام من ألمٍ ظلَّ يعتصر قلبي، وسعادة أوصلتني لمقعدي في السماء السابعة، جئتَ تُخبرني بوجعٍ كوجعي. لكنك لا تعلم أني قد أخذتُ قاربي الصغير وألقيته في بحرك الواسع غير عابئة بهلاكي المُحدِق بي.. لا تعلم أنني قد صارعتُ تلك الأمواج التي تُمزِّقُكَ الآن قبلك، وقد مَرَّ على مصرعي عام!

جلستُ أنصتُ إليك وأنت تشكو لي ما سببته عيناي من اضطرابات في قلبك، ارتباكك وتلعثم كلماتك فجَّر الأمومة في دمي. دومًا أنت تشعل

حنان الأمومة وتحبس أنفاس الأنوثة، وتُهدهد الطفولة على مهل.. فمرة أنت ابني الصغير الذي أودُّ لو أربتُ بكل دفء كفي على رأسه الجميل، وأداعب شعره ووجهه بأطراف أصابعي وألثم جبهته السمراء، أدفقُ عليه كل ما لديَّ من اهتمام ورعاية.. ومرة أنت حبيبي الذي يجعلني بكلمتين ملكةً على كل النساء، يجعل شعري أطول، وعيني أكثر سحرًا فقط لأنهما تروقان له.. أجمع له أشواقي كطفلٍ يُخبئ ألعابه الصغيرة، وأكتبه شعرًا و نثرًا.. ومرة أنت صديقي الشقي المجنون الذي أركضُ معه وسط حقول الأحلام، وتتبعنا العصافير حتى تمل الركض، فنكمل طريقنا وحدنا حتى القمر كي نحصي النجوم ونتعثر.

يا سيدي.. سيد الهوى، يا سكني وساكني.. مرحبًا بك الوصول لمملكة الهوى.ها قد فتحت أبوابها أمامك على مصراعيها.. ألا تعلم عيناك أني انتظرتُ طويلًا، انتظرتُ شروقك على روحي، انتظرتُ صباحًا تروي فيه شراييني التي باتت ترتسم في جسدي كالأرض العطشى.ناجيتُك في سري ملايين المرات لأسألك: متى تعود يا سيدي لتروي نبتة من الدهشة والحنين قد أسقطت بذرتها في دمي وقد أورقت وأثمرت حتى صارت شجرة وارفة أخذت من مساحات كل الناس؟! لو تعلم كم أجهد قلبي وقوفك عند منتصف المسافة. والآن لتقطع خطوات أخرى، فأنا أنتظرك هناك منذ عام. تعالَ إلى قُدس أقداس قلبي.

والآن قد بدأ عهد جديد من الفرح، بدأ عصر من السعادة.. قد بدأ عام جديد أنت كل أيامه، كل ساعاته جمالًا. الآن صار لي جناحان، صار بإمكاني القفز تمامًا كتلك العصافير التي ألهيت نفسي بمتابعتها في انتظارك.. وغفت ابتسامة على وجهي كابتسامة طفل قد رأى أمه لتوِّه وأخذ يعدو لكنفها.

وأخذ حديثك المتردد ينساب كالعطر من شفة زهرة.وتركتُ مقعدي لأجلس في المقعد المجاور لك. وملتَ عليَّ قليلًا كما تميل الرياحين الغضَّة مع نسائم صيفية. وقد لامس كتفك كتفي، وأصبحتُ في منطقة الخطر، أصبحتُ في أقرب مسافة لعينيك. لا يفصل بيني وبين بحيرة تشتعل بالعسل سوى بضعة سنتيمترات. أرخيتُ رأسي على كتفك، وفرشتُ شعري عُشبًا على صدرك. ليت شعري الطويل ينغرس جذورًا في صدرك، يشدُّني إلى خافقك للمنتهى..كفي حديثًا، وازرعني الآن في قلبك، لأُورق في كل شراييناك، وأصير شجرةً وارفة تُظلِّلُ على ذاكرتك وكل أيامك. ابنِ لي بيتًا صغيرًا على شواطئ عُمرِك. ولنأخذ جولة صغيرة بقاربنا الورقي في بُحيرة العسل.

قد صار جدار قلبك هو كل أوراقي.